جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

من أسرار التصوير بالحركة في القرآن الكريم

إعداد
حسن عبد العزيز شعبان أبو عامر
مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الإبداع البلاغي للتصوير الحركي في القرآن الكريم.

حسن عبد العزيز شعبان أبو عامر
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: fafmnysy.34 @azhar.edu.eg

الملخص:

تهدف الدراسة إلى محاولة فهم آيات القرآن الكريم، وتدبر معانيه ومقاصده، وقد جمعت هذه الدراسة بعضا من الآيات القرآنية التي تشتمل على الحركة، والوقوف على بعض أسرارها البلاغية التي تعين السامع على فهم المقصود والمراد منها، ونحن نسير في إبراز هذه المسألة المهمة، ولتحقيق هذه الأهداف قام البحث ببيان مفهوم الحركة، وتحرير المصطلح، مع بيان أهميتها في السياق من خلال الآيات القرآنية التي تشتمل على صورة الحركة، والوقوف على دور البلاغة العربية في بيانها؛ لفهم المراد من هذه الآيات، والوقوف على معناها، وصولا إلى الغاية المنشودة من ورائها، ولطبيعة البحث فقد سلكت منهجا يبدأ بذكر الآيات، وينتقل إلى إجمالي القول في معناها من دراستها دراسة تجعل من القاعدة البلاغية وسيلة للكشف عن بعض أسرار الذكر الحكيم حتى تسهم في تلقي هذه المعاني بسهولة لدى القارئ، وقد قاد المنهج البحث إلى بعض النتائج من أهمها: تنوع الحركة في القرآن بين مشهد وآخر، لتضع المتلقي أمام مشهد يبرز رغبته في معرفة حقيقة الأشياء والبحث عنها، للتصوير الحركي دوره في فهم المعنى المراد من السياق، فلا تصل إلى المعنى إلا به، ارتبطت الحركة ارتباطا وثيقا بالصورة، لتبرز المعنى مشاهدا جزئيا يتناسب مع الموقف عند تلقي هذه المعاني من النظم القرآني، فأحيانا تجد اقتران الحركة بصورة لا وجود لها في العالم الخارجي، وإنما جاء بها لتنفر قلوب السامعين ممن وقع فيها، لما عاهدته الناس في بعض كلامهم من أمور تثير الرعب، فقد جاء القرآن واصفا بعضا من المشاهد كأنها واقعة محققة، وهذا أبلغ في التصوير وألطف في المعنى لما فيه من إعمال الفكر.

الكلمات المفتاحية: التصوير الحركي، القرآن الكريم، ترادف الحركة، أثر الحركة في المعنى، الحركة ومشاهدة الأعين، الدلالات الفنية.

Rhetorical creativity of kinetic imagery in the Holy Quran.

Hassan Abdel Aziz Shaaban Abu Amer
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Itay El Baroud, Al-Azhar University, Egypt.
Email: fafmnysy.34 @azhar.edu.eg

Abstract:
The study aims to try to understand the verses of the Holy Quran, and contemplate its meanings and purposes. This study has collected some of the Quranic verses that include movement, and stand on some of their rhetorical secrets that help the listener understand the intended and intended meanings of them.As we proceed to highlight this important issue, and to achieve these goals, the research has clarified the concept of movement, and defined the term, with a statement of its importance in the context through the Quranic verses that include the image of movement, and stand on the role of Arabic rhetoric in explaining it; to understand what is meant by these verses, and stand on their meaning, reaching the desired goal behind them, Due to the nature of the research, I have taken an approach that begins with mentioning the verses, and moves to the overall statement of their meaning from studying them in a study that makes the rhetorical rule a means to reveal some of the secrets of the wise remembrance so that it contributes to receiving these meanings easily by the reader.The research methodology led to some results, the most important of which are:The diversity of movement in the Qur'an between one scene and another, to place the recipient in front of a scene that highlights his desire to know the truth of things and search for them.The kinetic imagery plays a role in understanding the intended meaning of the context, so you do not reach the meaning except through it.The movement is closely linked to the image, to highlight the meaning as a partial scene that is consistent with the situation when receiving these meanings from the Qur'anic system, so sometimes you find the movement coupled with an image that does not exist in the outside world, but rather came with it to repel the hearts of the listeners from those who fell into it, because of what people have known in some of their speech of things that arouse terror, as the Qur'an came describing some of the scenes as if they were a real event, and this is more eloquent in the imagery and more gentle in meaning because of the work of thought in it.

Keywords: Motion imagery, The Holy Quran, Synonymy of movement, The effect of movement on meaning, Movement and eye observation, Artistic connotations.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فإن من أعظم الخير أن يسعد المسلم بخدمة كتاب الله فينعم بتلاوته وفهم معانيه، وهذا خير ما يبذل فيه الوقت والجهد، فقد أودع الله فيه كل شيء، ومن ثم فقد استمد أصحاب العلوم علمهم منه، واجتهد المفسرون في بيانه، فهو كلام الله المعجز، ومن وجوه إعجازه الأصلية البلاغة، إذ هي الوجه الذي يلازم كل لفظ من تراكيبه، ولا يدرك هذه الغاية على الوجه الأمثل إلا من تحققت فيه فهم معانيه ومقاصده، وهذا الفهم لآيات الله لا يتم البتة إلا إذا تدبر العبد آياته، وعلى قدر هذا التدبر والفهم تكون الإبانة عن مكنون ما في صدره، فيقف على معنى جديد غير ما وقف عليه غيره من وجوه البلاغة والإعجاز، فيجني ثماره ويعرف أسراره؛ ليبين بعضا من مواطن بلاغته وسر إعجازه على قدر إحاطة العبد وعلمه، فلا تدرك إحاطته العقول، ولا يحيط ببلاغته عالم، لأنه أحكمت آياته ثم فصلت من حكيم خبير قال تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)هود:١، وهذا الإحكام يحتاج إلى الفهم، ولا ريب أن هذا الفهم لكلام الله عز وجل واستنباط المعاني المودعة فيه تحتاج إلى قدر عال من الجهد والوقت والتحفظ؛ لفهم النص واستخراج المعاني من خلال قواعد تستمد من بلاغته، ولا يكون المرء أهلا لهذا الفهم إلا إذا أودع الله فيه خصائص اللسان العربي، والذي لا يكون الفهم إلا من جهته، ومن إحكامه وتفصيله استنباط حياة الأمم منه، وتصوير حياتهم وحركاتهم وسكونهم، ومن ثم فتجد ألفاظه خالدة خلود الزمان، ومعانيه بنيت على شيء لا يختلف باختلاف الناس وعصورهم، ومن ثم فقد أصابتهم الدهشة وحل عليهم العجب فسجدوا منذ نزوله لبلاغته وفصاحته، حيث تتجلى فيه لغة البيان والمحادثة والتعلم والخطابة في صورها ومنهجها، فهو

يعالج قضايا المجتمعات، ويحاور ويناقش سائر الناس بلغة محكمة في التعبير، وجمعا للمعاني بأدل لفظ وأوجز طريق، وهذا كله بلسان عربي مبين، ومن جماليات اللسان العربي التعبير بالحركة التي تبث الحياة الشاخصة في الأشياء، وتوسع الآفاق للمتلقي، وهي من أهم الأدوات التي يبدع القرآن في بيانها والتعبير عنها بأساليب ينبض من ورائها الإعجاز، كما أنه يرصد من خلالها الكثير من المعاني باليسير من الألفاظ، إذ هي تعبر عن الخيال بلفظ يستوحي القارئ منه الكثير من الدلالة لمعرفة ما كان من أمر هذه الحركة، ولا يستطيع الوصول إلى المعنى المراد إلا بالحركة، فإذا بدل أو عبر بلفظ آخر لم تجد المعنى الذي تجده بها، كما ترصد الحركة ما يتحرك في الخارج عن طبيعة الأشياء؛ ليقف القارئ على أهوال خروج هذه الأشياء عن طبيعتها فيذهب عقله كل مذهب في دلالتها، وما ينتج عنها في زمنها كالواقعة إذا وقعت، والأرض إذا رجت، والجبال إذا بسَّت، وغيرها من الحركات التي تعبر عن بعض أهوال يوم القيامة، كما تصف الحركة ما لا يستطيع اللفظ وحده أن يصل إلى معناه كصك الوجه، ولي الرأس، وتصعير الخد إلى غير ذلك من الحركات التي سجلها القرآن، وجسد المعنى بها وأبرزها في صورة محسوسة مشاهدة للحركة التي زخر القرآن الكريم بها، ومن ثم اقتبست نموذجا من تصوير القرآن الكريم للحركة؛ لنبين من ورائها الأسرار البلاغية، ومواطن الجمال والجلال فيها، فجاء البحث تحت عنوان: " من أسرار التصوير بالحركة في القرآن الكريم"

وتنتهج هذه الدراسة المنهج التحليلي المعتمد على بيان السياق في تحديد الدلالة، وتتبع كل أداة تسهم في الكشف عن المعنى، وجاء ذلك وفق بعض من الآيات القرآنية المشتملة على الحركة في نظمها وسياقها مع بيان بعض الأسرار البلاغية، ومواطن الجمال في التعبير بالحركة، مع ذكر أوجه الفرق والاختلاف فيما بينها وبين غيرها، وكيف سجلها القرآن وآثرها ما أمكن ذلك المقام.

خطة البحث هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث ثم الخاتمة والفهارس العامة، أما المقدمة فاشتملت على خطة البحث ومنهجه، وأما التمهيد فيحتوي على: التعريف بالحركة، وسياقاتها المتعددة، ودورها في السياق، ومزيتها في اقترانها بغيرها من الهيئات الأخرى، وقدرتها على تصوير بعض المشاهد التي تبرز الحقيقة، وتوضحها ليجد السامع الرغبة الحاصلة منه للبحث عن الحقيقة ومعرفتها، أما المبحث الأول فتناولت فيه: ترادف الحركة الواحدة في أكثر من مشهد والمبحث الثاني تناولت فيه: أثر المجاز في الحركة –مجيء المجاز مبينا للحركة–، والمبحث الثالث: الحركة التي تبرز المشاهد وتجعلها ماثلة أمام الأعين، والمبحث الرابع: الحركة ذات الدلالات الفنية الكاشفة عن المعنى، ثم الخاتمة وأرجو من الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، محققا الغرض من تأليفه، وحسبي أني بذلت جهدي بقدر ما أوتيت من فهم ووعي، فإن كنت وفقت وأصبت فالفضل من الله، وإن كان خلاف ذلك فتقصير ساقته إلي نفسي، سائلا الله عز وجل الإصلاح والفلاح إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصل اللهم على معلم الناس الخير.

الباحث/ حسن عبد العزيز أبو عامر كلية اللغة العربية بإيتاي البارود.

التمهيد:

الحركة اللغوية: هي أصوات حسية تعكس دلالات وقيما نفسية تأثيرية تظل تجدد جمال مشاعر الإنسان، وتسري حواسه بصورة حية، فهناك علاقة وثيقة وارتباط حيوي بين اللفظة وحركتها من جهة، وبين الحركة والصورة النابعة منها والتي تجسد المعاني والقيم التي تريد أن توظفها في النفوس والقلوب والعقول(١).

ومجيء اللفظ في ثوب الحركة أشد تأثيرا في النفس، وأوقعوا وأدل على المراد، وحسن تصوره والاهتمام به، ولقد سجل القرآن الكريم الحركة في سياقات مختلفة، وهذا من أسرار بلاغة القرآن إذ هو يبدع في عرض الحركة في مقامات متعددة، فهو يعبر بالحركة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة، ثم يرتقي بالحركة فيمنحها الحياة، ويبث فيها النبض فإذا المعنى الذهني حركة، وإذا الأشياء الصامتة حية شاخصة، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية(٢).

والسياق وحده هو الذي يحدد الحركة فأحيانا تجد الحركة سريعة متتابعة مع شدتها ليبين عاقبة من يخالف أمرا، أو يقع في أمر نهي عنه، فيترك مجالا للعقل ليقف بنفسه على عنفوان هذا المشهد، ويذهب به كل مذهب في مصيره، حيث يقول الله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج٣١) وهكذا ترسم الحركة للسامع هذا المشهد وتصوره؛ ليقف على سوء عاقبة هذا المشرك، كما يتنوع المقام فأحيانا تجد القرآن يسجل حركة الأشياء الجامدة الصامتة؛ لتتجدد وتتنفس ويبث فيها روح الحياة حيث يقول الله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ﴾(التكوير١٨) لترسم الحركة وتجسدها؛ ليظل

١ – ينظر جمالات اللغة وغني دلالتها ص ٢٨٨.

٢ – ينظر التصوير الفني ص ٦٦ .

المعنى عالقا في ذهن المتلقي، فكما أن الصبح يزيل هذا الظلام الدامس على الليل، ويبث ضوء النهار ليريك مع الإشراق والتلألؤ في حركة الصبح الذي تراه القوة الحاصلة في كشف الظلام، وبث روح الحياة ليكشف عن المعنى.

كذلك تجد للحركة دورًا في إدراك المعنى من النظم، فلا تصل إليه إلا من خلال هذه الحركة، ومن ذلك وصف القرآن الكريم لإحدى ابنتي الرجل الصالح حيث قال: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (القصص٢٥)، وأحيانا تكون الحركة أدل على المعنى وأنطق، ومن ذلك حكاية القرآن عن السيدة مريم ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (مريم٢٩)، وتجد الحركة في معنى تتناسب مع حالة الرفق واللين حيث قال الله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾(مريم٢٥)، وهي تتناسب مع مقام القوة والشدة في مقام آخر حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مريم٨٣)، فالسياق من يحدد شدتها ولينها كذلك تجدها أبين على الحال، وأدل عليه حيث قال: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(الذاريات٢٩).

ومن بديع الحركة اقترانها بغيرها كالهيئة الحاصلة من الاستدارة في تقييدها في كف الأشل مع الحركة السريعة، وما ينتج عن هذه الحركة من اضطراب كقول ابن المعتز:

والشمس كالمرآة في كفِّ الأشل ... لما بدت طالعة فوق الجبل[1].

فحركة المرآة في كف الأشل تنتج حركة تصل بها إلى الهيئة الحاصلة من الاستدارة مع الإشراق، فالشاعر يريد الحركة المركبة، حيث أراد أن يريك مع الشكل الذي هو الاستدارة، ومع الإشراق والتلألؤ حركة الشمس التي تراها إذ

١ – اخْتلف فِي قَائِله فَقيل: الشماخ وَقيل: ابْن أَخِيه وَقيل: أَبُو النَّجْم وَقيل: ابْن المعتز ينظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ٣٢/٢، وعيار الشعر لابن طباطبا ص٢٨، وجاء في ديوان العجاج رواية الأصمعي ص٤٩٣ منسوبا لبعض الطائيين، ينظر: كتاب الأفعال لابن الحداد ٣٦٥/٢.

أمعنت التأمل، ثم ما يحصل في نورها من أجل تلك الحركة، وذلك أن للشمس حركةً في غاية السرعة، ولنورها بسبب تلك الحركة تموجًا واضطرابًا، وهذا لا يحصل إلا مع كون المرآة في كف الأشل[١].وهذا ما عناه الإمام عبد القاهر حيث قال: "إن مما يزدادُ به التشبيهُ دقّةً وسِحْرا، أن يجيء في الهيئات التي تقع على الحركات"[٢]، ويرى الخطيب أن من بديع المركب الحسي ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات[٣].

ومن مزية الحركة قدرتها على جعل اللفظ له القدرة على تصوير الحياة، والقرآن الكريم يختار من الحركة ما يمكن أن يصور المعنى مهما اختلفت البيئات وتتابع الزمن، فتجد من ذلك أنه يختار من الحركات ما يتناسب مع المعنى، فنجد حركة القمر في سيره على مدار حركته، واستمراره من أوله إلى آخره لا تصل إليها إلا من خلال قوله: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس٣٩)، فبعد أن عم الضوء وتلألأ نوره يصير مقوسا كالعرجون، ولا تجد لفظا أبر بالمعنى وأوضح وأدل على المراد من هذا، وتجد الجبال الراسيات تكون كالعهن يوم القيامة، فالحركة فيها تظهر قدرة الله وسيطرته على كونه ومطاوعة ما فيه له.

وتجد عذاب الله على الكافرين تظهره الحركة في صورة بديعية حيث يقول الله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر١٩، ٢٠)، فالحركة في تنزع تصور عذاب الله عليهم، حيث جاءت الريح فاقتلعتهم من أماكنهم، فالحركة تريك هذه الحقائق الحادثة في سالف الدهر، وكأنك تشاهدها وتعينها، وتجد الحركة تصف الجماد فتجعله متحركا،

١ – ينظر أسرار البلاغة ص ١٨٠.

٢ – المصدر السابق نفسه ص: ١٨٠.

٣ – الإيضاح في علوم البلاغة ص ٣٤٩.

فهذه الأرض الجامدة اليابسة المقفرة ينزل عليها الماء، فتخلع عليها الحركة صفة الحياة حيث يقول الله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾(فصلت٣٩)، وتجد الأرض بعد ثباتها واستقرارها وتذللها للخلق، إذ هي تزول فتصف الحركة مشهدا من يوم القيامة ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ..الواقعة٤﴾ كما تجد الحركة كاشفة عن معنى خفي يتوارى في صدور أولئك المنافقين حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ...الأحزاب١٩﴾، كما تكشف الحركة حال القوم المستكبرين عن آيات الله حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا...لقمان٧﴾، ثم صورت حاله عند الإعراض كأن في أذنه وقرا، وتأتي حركة أخرى تبين حال المؤمنين بعد أن هداهم الله للإيمان وبراءتهم من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ...الأنعام٧١﴾ فهي تبين تمسك المؤمنين بدينهم، وبيان حال المرتد عن دينه بالذي استهوته الشياطين، حتى إن البيان القرآني يضع ذهن القارئ على أمر أو حادثة أو قصة تظهر حال من ينقض عهده ودينه، فتجده يحيل عقل السامع في نقد الأيمان بعد توكيدها إلى حركة المرأة التي كانت تنسج ثم تنقض نسجها كأن لا عقل لها قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ..النحل٩٢﴾، كذلك تصور الحركة المعارك الضارية بين أهل الحق والباطل، وكيف كان للحق الغلبة بحركة الدمغ في قوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ.. الأنبياء١٨﴾، وهكذا تتنوع الحركة في القرآن بين مشهد وآخر لتضع المتلقي أمام مشهد يبرز رغبته في معرفة الحقيقة والبحث عنها.

المبحث الأول: ترادف الحركة الواحدة في أكثر من مشهد

قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ... النمل ٤٤﴾.

جاء سياق هذه الحركة عند تنكير سليمان(عليه السلام) لعرش ملكة بلقيس بتغيير هيئته المعروفة عندها، وعند قدومها عليه وسؤالها عنه أقرت بأنه كعرشها الذي تركته، فلما أمرها سليمان(عليه السلام) بالدخول إلى القصر جاء ذلك في صياغة الفعل (قيل) لما لم يسم فاعله؛ للتفخيم من شأن هذا الصرح الذي يظهر قدرة سليمان(عليه السلام) وما وهبه الله إليه، وفيه الرفعة من شأن هذه المرأة التي أعد لها هذا الصرح العظيم، وجاء تسميته بالصرح دون غيره لبيان سعته وفخامته وحسن جودته، كل ذلك يجعل السامع يترقب ما تصنعه عند دخولها، ومن ثم دلت الفاء في قوله (فَلَمَّا رَأَتْهُ) على سرعة السياق، كما أنها طوت بعضا من المشاهد منها الحذف في فدخلته؛ لعلم السامع به، كما أن العطف بالفاء أفاد ترتيبا بأن هذه الأحداث قد وقعت متعاقبة، وأنه لم يكن بين الدخول والرؤية فاصل زمني معهود.

وجاء سبب الحركة في قوله رأيته حسبته لجة، والحسبان هو الاعتقاد واليقين في ذهن المرأة لا الشك والظن، لأن قوله رأته كان نتيجة رؤية بصرية محققة في العين، وهذا يدهش السامع أي قصر هو هذا القصر، والتي حسبته تلك المرأة لجة، وإنما جاء فعل الحسبان بصياغته للدلالة على بنيته من الخطأ فيما ذهبت إليه المرأة قبل الدخول، حتى رفع عنها هذا الوهم والخطأ بقوله: (إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ)، وجاء ماضيا لأن الحسبان واقع ومحقق، فناسبه دلالة الماضي، وعليه فلما شرطية، ورأته فعل الشرط ماضيا؛ لتحقق وقوعه وجزمه بأن الذي رأته قد أدركت هي أنه ماء، وهذا أمر قد أدهش عقلها، واستدعى خوفها وهولها، حتى نتج عنه مجيء الحركة بالكشف عن ساقيها، والكشف عن الساق

–هنا– معناه ظهوره وموارات ما عليه من ثياب، حتى بدت عورتها وانكشف ساقها ظنا منها أن الذي دخلته ماء، أو أنها أسرعت في المشي فكشفت حتى تستطيع الإسراع فيه من شدة خوفها واندهاشها من الذي رأته.

ولقد سجل لها القرآن هذه الحركة، وعرفت بها من بين حركات القرآن خالدة لتوفير العناية لحال هذه المرأة، وما يأتي عنها من نظم حتى يدرك المتأمل حسن عقل هذه المرأة، وذكائها في رجوعها إلى ربها، واعترافها بخطئها في كونها جعلت مع الله ندا، وإبعاد كل الشواغل عن التركيز عن هذا المعنى دون غيره، وفي التعبير بـ(وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا) بجوار أن هذه الحركة حقيقية عن المرأة عفوية عنها دون أن تشعر بذلك، فهو وإن كان قد ظهر من التعبير به كشف جزء من عورتها، وهذا المعنى المتبادر في الذهن إلا أن ثمة معنى خفي لطيف يُلْمح من ورائه هو الكناية عن أن هذه المرأة كانت من شيمتها الستر، وأن الأصل فيها أنها مستورة، وأن الكشف كان عارضا لسبب خارج عن إرادتها، وهذا ما أثبته القرآن في جمع الساق دون إفراده؛ ليشير إلى أن الغرض كان لظنها أنه ماء لا من أجل أن تبل بالماء أذيال ثيابها فحسب بل لما اعتراها الدهشة، وصعوبة الموقف أهرعت أسرعت، فانكشف ثيابها عن ساقيها، والتعبير بالعينية (عن) يشير إلى أنه هو لا غيره ولا يتعداه.

(قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِير) فصلت هذه الجملة للاستئناف البياني، حيث جاءت منزلة عن جواب يجول في ذهن السامع بعد سماع ما قبلها، وبيان حاله المرأة ماذا كان من سليمان(عليه السلام) حين رأى المرأة في تلك الحالة من الهلع والخوف والاضطراب؟ قال إنه صرح وجاء بالتوكيد عمدة في بيانه لأن من شأنه أن يؤكد المعنى ويقرره؛ ليناسب حالة المرأة، ولكون الحاجة إليه أمس إذ هي تعيش حالة من الاضطراب والظن أن التي تمشي عليه قد يكون ماء، فاستدعى

النظم إنَّ لزوال ظنها وتحقيق المعنى المعبر عنه، وهذا من روائع النظم وبيانه يقول الإمام عبد القاهر: "إنما تحتاجُ إليها إذا كاَن له ظَنٌّ في الخلاف"[١]، وذكر الصرح بعد ضمير الشأن لإقناع المرأة أن الذي رأته ودخلته هو الصرح لا غيره، وهذا آكد وألزم للإقناع، ثم عدد صفاته ممرد من قوارير زيادة تفصيل وبيان، حيث أوضحت أن سبب الكشف تلك القوارير، وإنما فعل سليمان(عليه السلام) ذلك ليزيدها استعظاما لأمره، وتحققا لنبوته[٢]، وما وهبه الله من نعم تستدعي الإيمان به، وهذا ما أدركته المرأة حين أسلمت مع سليمان (عليه السلام)، واعتذرت عما كانت تعبد من دون الله، فالمعية توحي بأنها أسقطت عنها كل ماضيها، وقد رحلت عنه إلى حاضر جديد مع الذي جاء به سليمان(عليه السلام).

وقد آثر القران لها هذه الحركة دون غيرها فعبر بكشف ولم يعبر عنها بظهر، لأن الكشف يكون بالإرادة، والظهور يكون بالإرادة وغيرها[٣]، وعليه فإن كشف عورتها قد بدت منها بأنها الفاعلة دون غيرها، حتى لا يفهم أنها قد أهينت واعتدى عليها، كما أن الكشف متضمن معنى زوال هذه العورة أي: أنها بدت لبرهة ثم عادت إلى سترها وعفتها، هذا بخلاف الظهور كما في قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا...الجن٢٦) وقوله: (إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ...غافر٢٦)، لأن الأول مبني على أنه لا يعرف قبله الغيب ولا بعده إلا بإذن الله، والثاني مبني على أنه كما يزعم فرعون أنه سيحدث أمرا جديدا هو ظهور الفساد الذي لم يكن موجودا على حسب قوله، ولو قال كشف لكان الفساد موجودا ولكان مخفيا عنهم، وهذا ليس مراده لأنه الحاكم للأمور،

١ – دلائل الإعجاز ص٣٢٥.

٢ – ينظر: تفسير الرازي: ٥٥٩/٢٤.

٣ – ينظر الفروق اللغوية(كشف).

ولا يعترف بفساد كان موجودا أو مخفيا، وإنما استعمل الكشف عن الساق، لأنه كان موجودا مستورا.

كما آثر القرآن الكشف دون بدت لأن البدا ما يكون بغير قصد[١]، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا...الجاثية ٣٣) أي: ظهرت أمامهم وفضحتهم عن غير قصد، أو قوله تعالى: (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ... يوسف٣٥) أي: أزيل الخطب والأمر والشك لهم من دون قصد منهم فرأوا سجنه وعذابه، كما أن البدا قد يوهم أن عورة المرأة كلها قد ظهرت وأزيل عنها سترها، كما حدث لآدم(عليه السلام) وزوجته حيث عبر القرآن(بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا...الأعراف٢٢) لكن ربط القرآن كشف العورة بالساق فقط لا من أجل عُري، وإنما لسرعة الدخول بعد حسب كونه ماء، وعليه فإن البدا أقرب إلى الظهور من الكشف، لأن البدا أصله الظهور تقول بدا لي الشيء إذا ظهر، وتقول بدا لي في الشيء أي: ظهر لك فيه رأي لم يكن ظاهرا، ولا يجوز على الله البدا؛ لكونه عالما لنفسه[٢]، ومن ثم تجد هذا اللفظ عبارة عن تغير الرأي عما كان عليه في السابق[٣].

وبعد حركتها هذه وكشف سليمان(عليه السلام) الأمر بأنه صرح، انقطع الحديث عنها بقول الله حكاية عنها: (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وكأن هذه المرأة وصلت إلى غايتها، وأدركت ما كانت تسعى إليه حتى انتهى أمرها إليه، فبلغت المنزلة وارتفع شانها، وهذا هو المراد.

---

١ – ينظر المصر السابق نفسه (كشف).

٢ – ينظر الفروق اللغوية ص: ٦٠.

٣ – ينظر تفسير الرازي: ٤٥٢/١٨.

وقد ترادفت هذه الحركة في أكثر من مشهد منها حديث إزالة الضرر وإزاحته قال تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ الأنعام..١٧٠) وقال: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ...النمل٦٢)، وجاءت في الكشف عن أهوال يوم القيامة(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ...القلم٤٢)، وقال: (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ كَاشِفَةٌ...النجم٥٨)، وجاءت في سياق كشف العذاب قليلا في الدنيا فقال: (إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ..الدخان١٥)، وإثارها يثبت أن الله هو المتصرف في الأمور كلها، ولا أحد غيره يستطيع كشف هذه الأفعال والأحداث قال تعالى: (أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ كَاشِفَةٌ.. النجم ٥٧، ٥٨)، واستعمال مادة كشف في رفع الضرر والعذاب استعارة تصريحية تبعية، فقد شبه إزاحة الضرر ورفعه بالكشف بجامع إزالة الحد في كل، ودور الاستعارة في المعنى تشير إلى أن هذا الضرر والسوء الذي نزل على هذا الرجل حتى كاد يحجب عنه نور الحياة، قد كشف عنه حتى كأن لم يكن موجودا، وفي التعبير بالكشف عن ظهور أهوال يوم القيامة كناية عن شدة وصعوبة الأمر، فقوله: يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ أي: يكشف عن ساق الأمور وأصولها وحقائقها فتصير عيانا، وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: عبارة عن القرب، وقيل: يكشف الرب نوره[1]، كما أن حركة الكشف عن أهوال يوم القيامة ما تنبئ عن عظامها وكثرتها وشدة وقوعها، ومن ثم تجد القرآن في ظهور الأهوال والعذاب والخطب الجلل يستعملها، ألا ترى أن الله في أول الأمر وظهور قال:

١ – ينظر: تفسير حدائق الروح ٣٠ / ١٠٦.

(فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ...ق٢٢)، فلا تكاد تستعمل إلا في إزاحة ضرر أو كشف أمر جلل.

قال تعالى: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا **مريم٢٥**) بعد أن بشر الله السيدة مريم –عليها السلام– بالغلام الذكي عيسى(عليه السلام) جاءها المخاض الذي هو ألم الولادة بجوار النخلة، فساق الله لها آية من آياته كي يسري عنها الحزن والسوء، بأن أسرى لها نهرا سماه القرآن (سريا) يجري من تحتها، وما أوحى إليه هذا اللفظ من معنى مكنون يتناسب مع حالة السيدة مريم من حزن أصابها عند بشارتها، وجعل هذا السري تحتها بصيغته بعد ندائها يشير إلى كرامتها وعزتها، وأن لها شأنا دون غيرها من النساء، والنهر لا يكون تحتها مباشرة وإنما بجوارها، وفي إيثاره ما يبين أن الله هيأ لها من أسباب الراحة والطمأنينة والسكينة ما يتناسب مع حالها، ومنها تلك الحركة التي أمرها الله بها وهي (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) حركة يسيرة منها دل على يسرها ولينها مجيء الواو العاطفة التي تعطف ما بعدها على ما قبلها، وتجمعه في وحدة متجاورة متآلفة مع ما سبق من نعم الله عليها، وجاءت هذه الحركة في ثوب الأمر الذي أفاد معنى بلاغي لطيف هو الإكرام، أو يكون المراد منه الوعد أي: افرحي واستعدي فقد جاء الوعد الصادق بأن سيكون منك الغلام الذي يرث مقام النبوة، وفي تقديم الجر والمجرور إليك على المفعول جذع النخلة إشارة كريمة منه جل شأنه تدل على أن غيرها ليحل محلها في إسقاط الرطب بهذه الكيفية، وهذا هو الفرق بين قوله وهزي إليك وبين قولنا وهزي جذع النخلة لك، فالأول أفاد بأن يكون إثمار الجذع اليابس ببركة تحريكها إياه، وتلك كرامة[1] لها دون غيرها، وفيه دليل على أن تلك الحركة كانت إليها دون جهة أخرى؛ لتشاهد بعينها كيف

١ – ينظر: التحرير والتنوير ١٦ / ٨٨.

يثمر الجذع اليابس رطبا، وفي ذلك كرامة لها بقوة يقينها بمرتبتها[١]، والباء في بجذع مجازه أن الباء من حروف الزوائد[٢]، وقيل معناه أنه نزل هزي منزلة اللازم وإن كان متعديا، ثم عداه بالباء كما يعد اللازم، والمعنى افعلي به الهز[٣]، وأقول إن الباء –هنا– جاءت للتوكيد أي: توكيد هز النخلة من جذعها، لأن الفعل هزي يتعدى بنفسه وذلك لإثبات أن مجرد حركة النخلة من جذعها تساقط الرطب الجني.

وفي سياق النظم ما يبين أن الله رعى حالتها وهي في حالة رضاعتها أيما رعاية، حيث إنه(ﷻ) لم يطلب منها الضرب في الأرض لحفر الماء، وإنما الذي طلب منها حركة النخلة إليها وذلك للتسبب، لأنها لما أتاها المخاض جاءها وهي بجوار جذع النخلة تلتصق به بدليل قوله: (فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) وإمساكه أمر بديهي طبيعي يستند عليه في حالة الضعف، فأمرها ربها بالهز طلبا لذلك الرزق، أما الحفر والضرب في الأرض فلا تقوى عليه، وأن مثلها يكون مشغولا بغير ذلك، ونتيجة لتلك الحركة البسيطة منها تساقط الرطب الجني عليها، فقوله (تساقط) جاء جوابا للطلب الذي طلب منها، وأتي على وزن التفاعل ليفيد أن الرطب قد التفت حولها وقربت منه، وتشاركت مع بعضها البعض حتى تساقط عليها، وتأمل دقة التعبير بالجر والمجرور، وتقديمه على المفعول؛ ليفيد أنه تساقط عليها وقرب منها قربا شديدا حتى لا تتأذى من مشي وسعي في البحث عنه، هذا بخلاف قولنا تساقط رطبا لأن هذا لا ينفي أن يكون تفرق عنها وبعد حتى تطلب السعي والبعث، والمرأة في حالتها تكون ضعيفة لذا ناسبها التعبير بعليك.

---

١ – ينظر: المصدر السابق ١٦/ ٨٨.

٢ – ينظر: مجاز القرآن أبو عبيدة ٢/٥.

٣ – ينظر: إعراب القرآن وبيانه: ٦/٨٦.

وجاء قوله: (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) نتيجة لبيان هذه الحركة، وجزاء لسعيها على رزقها، وهذا يرشدنا إلى عدم الكف عن طلب الرزق، فالفاء في فكلي فصيحية، وفعل الأمر خرج من معناه إلى معنى آخر مجازي هو التشريف والتكريم، وقد بني هذا النظم على الطباق حيث طابق بين كلي واشربي، وجمع بينهما بالواو التي أضفت على النظم صفة التغاير، فحسن العطف مما أكسب الكلام جمالا بديعيا، واختيار الأكل والشرب لأنها هما الأساس التي تقوم عليه، وتقوى بهما للخروج من ألم المخاض والوضع، والحزن الذي أصابها حتى يسري عنها من أجل ذلك جاء قوله: (وَقَرِّي عَيْنًا) "كناية عن السرور بطريق المضادة لقولهم: سكنت عينه إذا كثر بكاؤه"[1]، وليس القصد فقط من قرة العين الأكل والشرب، وإنما قرة العين راجعة إلى هذا الغلام الذكي، ومن ثم فقد رزقها الله الولد وأقر عينها به، وأجمع لها من الآيات ما جعلها تستقر ماديا وروحيا، ماديا بالأكل، وروحيا بالغلام الذكي، وهذا يبين فضلها وكرامتها على غيرها من النساء، وقد عطف بين الأكل والشرب وقرة العين؛ للتوسط بين الكمالين، فقد اتفقت الجمل في الإنشائية لفظا ومعنى، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف بينهما، وجاءت جملة (وَقَرِّي عَيْنًا) ليرفع عنها ما أصابها من حزن إبان بشارتها بالوضع عندما جاءها المخاض، وعليه فإنه لما كان تمني الموت يظهر الحزن والألم الذي لحق بالعبد حتى تمنى الموت، وقر العين يظهر حالة الفرح والسرور والسعادة التي لحقت بالعبد إبان البشارة بالمولود طوبق بينهما، وهذا الطباق يدلي بدوره في تفريج همها، وكيف أبدل الله حزنها بالفرح والسعادة، وحقق لها هذا عن طريق الإثبات بالطباق، إذ هو طريق من طرق التصوير، ورابط معنوي يجعل

١ – التحرير والتنوير ١٦ / ٨٩.

الصورة متماسكة[١]، وهذا الذي اطمأن به فؤادها وأنست بجوار ربها وتمسكت بحبله، فأعد لها من الآيات والمعجزات ما يبين كرامتها وفضلها على نساء العالمين.

وفيما سبق حركة تتمثل في هزة ينتج عنها الرطب الجني، وستأتي حركة أخرى تتمثل في هزة ينتج عنها النبات الأخضر المورق والصبغ للآكلين حيث قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ... فصلت ٣٩) جاءت هذه الحركة في سياق الأرض الهامدة الساكنة، وقد أنزل عليها الماء، فتحولت إلى أرض مورقة بالنبات، وهذا تصوير حسن ودليل على أن الذي أحيا هذا قادر على أن يحيي الموت ويبعثهم من القبور، وقد سبق نظم هذه الآية الحديث عن آيات الله منها الليل والنهار والشمس والقمر، وكذلك السجود والخشوع والتذلل الحاصل من العباد لله وحده، فعباده لا يكلون من طاعة ولا يسأمون من عبادة، ثم شرع في نظم هذه الآية (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً) ومن ثم آثر النظم خاشعة دون هامدة، لأن الخشوع هو التذلل والخضوع وهو ما يناسب الأرض، والسياق السابق عليها من تذلل الآيات والعباد لله رب العالمين.

وهذه الحركة (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) آية من آيات الله –تعالى– تستمر وتتجدد حتى قيام الساعة، ومن ثم ناسبها المضارع (ترى) وما فيه من رؤية بصرية محققة لدى المخاطب، تحريكا للذهن لاستحضار حقيقة هذا الواقع المسلم به، وقد عبر عن حركة إحياء الأرض بالنبات بعد موتها بالرؤية ولم يعبر عنها بالخلق، لأن الآية داخلة في حيز النظر ومندرجة في سلك المرئيات، فعبر عنها

١ – ينظر التصوير الفني في القرآن الكريم ص ٨٢، دراسات بلاغية الأستاذ الدكتور صباح دراز ص ٢٥.

بقوله ترى[1]، وجاء تمثيل الأرض بالخشوع عن طريق الاستعارة المكنية، حيث شبه الأرض في حالة همودها وسكونها ويبسها بالإنسان المتذلل الخاضع، وفي جمال الاستعارة ما يشير إلى أنها أضفت على الأرض صفة الحياة، وجعلتها ساكنة هادئة في حالة الاستعداد والاستقبال لهذا الشيء القادم، وفيه معنى بلاغي لطيف يشير إلى أن القرآن معني بكل حرف من حروفه، فسياق الآيات يسيطر عليه الخضوع، لذا جاء بالخشوع مع الشيء الصامت الجامد لتشارك سياق الآيات، كما أنه –تعالى– آثر الخشوع دون الجمود والميتة ما يشير إلى أن الأرض تقوم بواجبها تجاه من خلقها، وتؤدي ما عليها من واجبات تجاه مخلوقاته قال تعالى: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ... يس٤٠)إشارة منه –جل شأنه– إلى أن كل شيء خلق وفق حكمة وله دور وواجبات، وتكمن دور الاستعارة في أنها أخرجت "اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والمتخيلة"[2].

ومجيء إذا شرطية تفيد تحقيق الوقوع لتناسب وقوع الماء على الأرض، والفاء عاطفة تفيد سرعة الإحياء والإنبات، لأن الذي جعلها خاشعة قادر على أن يحييها بعد نزول المطر، فحركة الأرض ترتبط ارتباطا وثيقا بالماء، ولقد سجل القرآن حركتين للأرض فقال: (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) وقدم الاهتزاز على الربو، لأنه يكون أولا عند نزول المطر فتنبت، ثم يأتي الثاني وهو النماء والزيادة والتفتيح، وثمة معنى لطيف حيث أفضى القرآن على الأرض صفة الحياة بفضل هذه الحركة، فبعد أن كانت الأرض قاحلة مقفرة إذ يقول في وصفها (اهْتَزَّتْ) فخلع عليها صفة الحياة تشخيصا لها، حيث شبه الأرض بإنسان ثم حذفه، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو التحرك والاهتزاز بجامع السرور والفرح في كل، وتكمن

١ – ينظر إعراب القرآن ٦/ ٣٩٤.

٢ – البيان في ضوء أساليب القرآن الأستاذ الدكتور عبد الفتاح لاشين ص ١٩٢ دار الفكر القاهرة ١٤٢٢ هـ ٢٠٢٢ م.

بلاغة الاستعارة في أنها تحول تلك الأرض الجامدة من شكل صامت إلى منظر متحرك حي[١]، وهذا التمثيل بتلك الحركة أوقع في النفس، وأودع لرسوخ المعنى في الذهن، وبرهان لما سيقع من أمر البعث، وشاهد عليه، وعرض الحركة في تلك الصورة دقة في الإعجاز، إذ هي تثير في الخيال مشاعر الأرض بعد صمتها وسكونها بسبب المطر النازل عليها إلى حركة أخرى حية تنبض، ويدب فيها الأمل بإحياء النبات، وقد رصدت الحركة هذا المعنى في ذهن السامع ولامسه بنفسه، "فالتصوير هو الأداة المفضلة في القرآن..... فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ....ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الطبيعية البشرية مجسمة مرئية[٢].

وقد تكون الاستعارة في قوله (خاشعة، اهتزت) تصريحية حيث شبه الأرض وهي مقفرة جرداء يابسة بالخشوع والتذلل، بجامع الخضوع في كل، وشبهها وهي في حالة الإنبات وخروج الزروع منها وارتفاعه فيها بالحركة والاهتزاز، ودب روح الحياة فيها، بجامع الإحياء في كل على سبيل الاستعارة التبعية، وجمالها يكمن في أنها مظهر من مظاهر البعث، فبعد أن كانت الأرض يابسة صامتة في وصفها بالخشوع دب فيها الحياة، وهذا يشير إلى مظهر القوة والعظمة والقدرة على إحياء الموتى بعد ذلك، وهذا طريق من طرق الإثبات والتأكيد بالبرهان والدليل، وأما قوله هامدة في سياق سورة الحج: (وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ٥) جاء في سياق الحديث عن البعث وخلق الإنسان من تراب، ثم أخذ في الكشف عن هذه

١ – ينظر: المصدر السابق نفسه: ١٩٢.

٢ – ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم: ٦٦.

المراحل حتى صار حيا تدب فيه الروح، فناسب الهمود حالة خلق الإنسان من حيث إنه تراب ساكن صامت هامد حتى بث الله فيه الروح والتحرك، وإسناد الإنبات إلى الأرض من قبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، لأن الله هو الذي أنبتها، وإنما أسند الإنبات لها مبالغة فيما أودعه الله فيها من الإحياء حتى إنها لم تدع مكانا لم ينزل عليه ماء إلا أصبح مخضرا، وطوبق بين قوله (هَامِدَةً، واهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنبَتَتْ) حيث طوبق بين السكون وهمود الأرض وصمتها، وبين حركتها واهتزازها حين نزول المطر، وقد جُعل ذلك من قبيل التكافؤ لأنه جاء بألفاظ المجاز[١]، وسبب مجيء الإرداف والعدول عن المعنى الحقيقي هو الحركة والسكون، لأن الهمود يراد به الموت والأرض تكون على تلك الحالة حالة عطلها عن السقي، فعادل إلى لفظ الهمود المناسب للموت، وعدل عن الحركة إلى الاهتزاز، للإيذان بأن الأرض ستعطي عند سقيها ما يرضي من نبات بتنزيل السقي لها منزلة ما يسرها فاهتزت لتشعر بالعطاء[٢].وقوله (وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ) طوبق بينهما لأن الأرض تربو حالة نزول الماء عليها ولا تنبت في تلك الحالة، فإذا انقطع الماء وجفت الأرض نبت النبات، فطوبق بين المعنيين[٣].

وقد جعل صاحب التحرير والتنوير الحركة بين الاهتزاز والربو حركة واحدة حين جعل الاهتزاز مستعارا للربو ووجه الأرض بالنبات[٤]، وعليه فلا طباق بين الربو والإنبات، وإنما هما بمنزلة الشيء الواحد الذي جاء به من أجل بيان هذه الصورة واكتمالها وتمام هيئتها عند نزول الماء، فكأنها لم تبخل بشيء، وعليه فحركة الاهتزاز والربو قد يكونان معا قبل خروج النبات، وقد يكونان بعد

١ – ينظر تحرير التحبير وإعراب القرآن ص ٦ ٣٩٥.

٢ – ينظر إعراب القرآن ٦/ ٣٩٦.

٣ – ينظر: المصدر السابق نفسه: ٦/٣٩٥.

٤ – ينظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٠٢.

نزول المطر كل واحدة على حدة أي نزل الماء فاهتزت وتشققت فخرج منها الإنبات، وثمة معنى يوضح الفرق بين إثبات مرحلة الإنبات في آية الحج (اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ) وحذفها في آية فصلت لعل ذلك راجع إلى أن نظم الأولى يدور على مراحل خلق الإنسان وتطوره، فناسبه تطور الأرض والثانية جاء نظمها وسياق عند الحديث عن الموت والبعث بعد الموت دون نظم الإنسان، ولعل ذلك راجع إلى سرعة بيان المعنى ليناسب سرعة المقام، وأن الله قادر على ذلك فكما أن سرعة إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك إحياء الموتى، ومن ثم جاء قوله إنه على كل شيء قدير تذيلا لما سبق، وأتى به لتأكيد منطوق ما قبله.

وهاهنا حركة أخرى تختلف اختلافا تاما عن الحركة السابقة، فهنا سياق الذم والهزة هنا من نوع غير ما سبق، فما سبق كان نتيجة طبيعية تعقبها الفرحة والسرور، وهنا نتاجها الخبيث الذي يعقبه الازعاج الشديد حيث قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا..مريم٨٣)، فالهمزة والزاي يدلان على التحريك والازعاج[١].

وجاءت هذه الحركة في سياق الحديث عن العاصي بن وائل وغيره من المشركين الذين فاق جرمهم وآذوا رسول الله(ﷺ) ومن معه من المسلمين، واتخذوا مع الله ندا، فأنزل الله هذه الآية تسلية وتصبيرا وتثبيتا لرسول الله(ﷺ) ومن معه؛ ليبين لهم رؤية كرؤية العين أن هؤلاء يصدون عن طريق الله، لأن الله أرسل الشياطين عليهم تقودهم إلى كل معصية، وتحرضهم على كل رذيلة، وتبعدهم عن كل طاعة لعدم الانتفاع بأبلغ نافع، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم، وجاء هذا ماثلا في نظم افتتح بالاستفهام فقال: (أَلَمْ تَرَ) فأفاد التقرير أي: تقرير تحريض الشياطين، وإرسالهم على هؤلاء لصدهم عن كل طاعة، وتزيين كل معصية قال

١ – ينظر مقاييس اللغة (أزا).

تعالى: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ..النمل٢٤)، وحمل البعض الاستفهام –هنا– على التعجب منهم الشيخ ابن عاشور قال" والاستفهام في ألم تر تعجيبي، ومثله شائع في كلام العرب يجعلون الاستفهام على نفي فعل، والمراد حصول ضده بحث المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي: كيف لم تر ذلك"[١]، وحمل الزمخشري معنى الاستفهام على تعجيب رسول الله(ﷺ) بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم، وملاحتهم، ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم بالدين من تماديهم في الغيّ وإفراطهم في العناد، وتصميمهم على الكفر[٢]، وحمل الآخر الاستفهام على التقرير، أما التعجيب فهو ردف له، والرؤية هنا رؤية علمية من خلال الآيات التي نزلت تنبئ رسول الله(ﷺ) بضلال أهل الكفر، ومعاداتهم للحق[٣]، وآثر السياق الإرسال هنا لما تحمله من دقة واستحواذ وسيطرة تمكنت منهم أشد تمكن مع تحمله من قوة تدفعهم دفعا، وتحركهم تحريكا شديدا تجاه المعاصي، وناسب ذلك حرف الجر (على) لتبين كيفية الاستحواذ عليهم، وقياداتهم لهم مع مطاوعة الكافرين دون تفكير ولا تأمل، ومجيء ذلك في ثوب الماضي لبيان مضمون هذا المعنى مقررا واقعا فيهم، ولدوام حالهم كأنهم طبعوا عليه، وجاء المعنى مصورا لما يحدثه من خصوصية وتأثير في المعنى لدى السامع، فقد شبه "الكافرين بالمطايا اعتلتهم الشياطين وتمكنت من قيادتهم فأوردت المهالك"[٤] بجامع الهلاك والتخبط في كل، وجاءت الحركة في ثوب المضارع (تَؤُزُّهُمْ) ليفيد تجدد واستمرار مطاوعة هؤلاء للكافرين ساعة بعد ساعة دون توقف، وجاء في ثوب الحال لبيان

١ – التحرير والتنوير ١٦ / ١٦٥.

٢ – ينظر: الكشاف : ٢/ ٥٢٤.

٣ – ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم:ج٢ / ٢٩٤.

٤ – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٢/ ٢٩٤.

حالهم عند الإرسال، أو قيل هذا استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطين بهم؟ فقيل: تؤزهم[١].

وقد جسمت تلك الحركة في ثوبها الاستعاري الشيء المعنوي في صورة حسية موحية أخرجت ما لا يبصر مخرج ما يبصر تهويلا له وتنفيرا منهم، حيث صور اضطراب اعتقادهم، وتناقض أقوالهم، واختلاف أكاذيبهم، وميلهم نحو المعاصي بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعه وسكون[٢] على سبيل الاستعارة المكنية على أن الأز أصله من أزت القدر تؤز أزيزا إذا اشتد غليان الماء فيه[٣]، وقد تحمل الاستعارة على التصريحية في الفعل، حيث شبه ميل الكافرين النفسي، ومطاوعتهم للشياطين بالأز الذي هو التحريك والإغراء، بجامع الاتباع في كل، وبلاغة الاستعارة تكمن في أنها تبرز هذا البيان في صورة مستجدة تزيد من قدرة المعنى مع الإيجاز، والدقة التي تصور المعنى للسامع تصورا مؤثرا يستقر في ذهنه.

وما بين (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) جناس الاشتقاق[٤]، وقد سماه الرماني جناس المناسبة، وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد[٥]، حيث إن كلا منهما يرجعان إلى أصل واحد، فقد جونس بينهما، وترتب على ذلك صرف قلوبهم عن الطاعة، والميل إلى المعصية، وقد جاء قوله تعالى: (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) في باب تصاقب الألفاظ للتصاقب المعاني عند ابن جني، وأتبع ذلك قوله: منها الاقتراب إلى

---

١ – ينظر: تفسير الألوسي روح المعاني: ٨ / ٤٥٠.

٢ – ينظر التحرير والتنوير:١٦/ ١٦٥ والتفسير البلاغي للاستفهام: ج٢/ ٢٩٥.

٣ – ينظر لسان العرب : (أزا).

٤ – هو أن يجمع اللفظين الاشتقاق، فيؤخذ لفظ من آخر لمناسبة بينهما في المعنى، وإن لم يكن من الجناس لوجود اختلاف المعنى فيه. ينظر الإيضاح مع البغية ص ٦٤٧.

٥ – ينظر: النكت في إعجاز القرآن ١/١٠٠، الطبعة الثالثة، دار المعارف.

الأصلين فقوله: (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) أي: تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزهم هزا، والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنى، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهمزة، لأنك قد تهز ما لا بال له كالجزع[1]، ومن ثم ناسب الهمزة السيدة مريم لأن طبيعتها البشري في كونها امرأة حضرها ألم المخاض، فالهز أقل من الأز، ومن ثم ناسب كل من اتخذ مع الله ندا لشدة غلظتهم وتلهفهم على المعاصي، فالشيطان يدفعهم دفعا إلى المعاصي، ويصرفهم صرفا عن كل طاعة، وقد حمى الله عباده المؤمنين من كيده ومكره وتربصه، قال تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ... الحجر ٤٢) فالسلطان هو المتصرف في الأمور والقائد لها، فمفهومها يقتضي أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، ومنطوقها سلطانه على المشركين قال تعالى: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ...النحل ١٠٠)، فلا تجد هذه اللفظة الفريدة إلا في هذا الموضع، وقد خصصت لهم، وعرفت بهم.

قال تعالى: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا **(الواقعة١-٤)** جاء نظم هذه الحركة في أوائل سورة الواقعة حين يأتي يوم القيامة، وما فيه من أهوال تقع منها أن الأرض تزلزل بما عليها من جبال وأبنية، وقد جاءت هذه الحركة وسط بوتقة من الأحداث التي تصور هذا اليوم منها تسمية السورة باسم هذا اليوم الواقعة؛ للأذان بأن هذه الأهوال واقعة في نفسها محققة؛ لذا أتى -سبحانه- بما يناسب النظم من الأساليب التي افتتحت بالشرط بـ(إذا)، لأنه ينبه المخاطب ويحرك عقلهم، ويلفت ذهنهم لتلقي هذا الجواب فيستقر ويثبت، وقد جاءت الحركة في ثوب الماضي ليفيد ما هو

١ - ينظر الخصائص لابن جني: تحقيق/ محمد النجار ج٢/ ١٤٦، عالم الكتب بيروت.

للوقوع قد صار واقعا ملموسا؛ ليقرر تلك الحقيقة التي لا شك فيها، وهذا الافتتاح هو براعة الاستهلال حيث ناسب الابتداء مقصود الكلام "ليسترعي الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزمني مع ما في الاسم المسند اليه من التهويل بتوقيع حدث عظيم يحدث"[١]، وبعد الافتتاح بهذه الحركة في حيز الشرط وأداته (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) يقتضي جوابا قيل: محذوف تقديره إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ كان كيت وكيت، وهذا نوع من الإيجاز للتهويل، ولتذهب النفس فيه كل مذهب[٢]، أو يكون قوله إِذَا رُجَّتِ بدلا منه، أو تكرارا لها، وعليه فالجواب وبدله هو فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ أي: إذا وقعت أهوال الناس فأصحاب اليمين[٣].

وبين قوله: (وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) جناس الاشتقاق، فلفظ وقعت ولفظ واقعة مشتقان من مادة واحدة، فأحدث الجناس إيقاعا تهتز له الأحاسيس والمشاعر لملاقاة ما تسمعه الآذان، وأكد –سبحانه– وقوع هذه الواقعة بقوله: (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) اعتراض بينما سبق وما سياتي، وذلك لبيان التنبيه على تقريرها وتأكيدها، وتنشيط السامع لما سيقع فيها من أهوال، فالاعتراض بها يستجلب عقل السامع إلى ما سيقع بعده، واستفتاح هذا بالنفي بـ(ليس) لأن النفي بها يتضمن "نفي عموم الجملة الماضي والحال والاستقبال"[٤] لأن حال هؤلاء المنكرين ليوم القيامة، وما فيه من أهوال لا يكون منهم إنكار لوقوع يومئذ ومشاهدتها حين وقوعها كما كان حالهم في الدنيا من إنكار البعث، فأكد الكلام لبيان حقيقتها وما يقع فيها من أهوال كي يرتدعوا وينتهوا، وبين قوله: (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ) رد العجز على الصدر، وذلك دلالة على تأكيد هذه المعاني

١ – التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٨١.

٢ – ينظر: روح المعاني: ٢٧ / ١٨٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه: ٩/ ٤٣٤.

٣ – ينظر إعراب القرآن وبيانه: ٩ / ٤٢٥.

٤ – البرهان: ٤/ ٣٣٦.

وتقريرها، لأن اللفظ عندما يذكر مجانسا للآخر يثبت في الذهن ويستقر، وأردفت هذه الحركة بحركة أخرى خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ في وقت وزمن واحد، وجاء ذلك في ثوب الطباق لثبوت هذين الضدين لشيء واحد، وتكمن بلاغته في أنه أبرز صورة الهول التي ينقلها اللفظ، ولا يعبر عن مكنونها إلا وهو مترادف لنقيضه ومجتمع معه في بوتقة من الأساليب تكشف عن هذه المعاني، منها حذف المسند إليه وتقديره: هي للعلم به؛ لتسليط الكلام على هاتين الحركتين، ومجيء الخفض مقدما على الرفع ليتناسب مع الواقعة، وللإيذان بشدة وهول هذه الحركة، ولا أدل على ذلك من إسناد الخفض والرفع لها عن طريق المجاز العقلي لعلاقة الزمانية، وتبدو بلاغته في الهول الشديد الذي تحققه، وكأنها هي الفاعلة، وجاءت الحركة (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) مفصولة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، وبينهما من التلاحم والترابط ما يمنع العطف، لأن الثانية صارت بدلا منها، وثمة معنى بلاغي في هذا الترابط دون العطف هو أنه أي: حركة الأرض والعذاب الناشئ عنها من كثرة أهوالها على الكافرين مغايرة للحركة الأولى، وهذا يومئ إلى التفخيم والتهويل، وثمة معنى آخر في تتبع هذه الآيات (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) هو الإيقاع السريع بين هذه الحركات، فكل واحدة منهن مع شده سرعتها وتغيرها عما سبق كأنها نابعة ورادفة للهول الذي أحدثته الأخرى، ومن ثم أتت الحركات متلاحقة وكأنها طبول حرب قادمة... ظلت درجة الإيقاع في سرعتها وهي تصف رج الأرض، وبس الجبال، ثم مالت إلى الهدوء النسبي حين تحدثت عن أصحاب الميمن(١).

١ – الفصل والوصل في القران الكريم : ٢١٤.

وإيثار الحركة في لفظ رجت لأنها من التحريك الشديد، والحركة بعنف، والزلزلة بقوة، وهذا ما يتناسب مع شدة، الاضطراب التي أحدثته الواقعة الخافضة الرافعة، وكررت الحركة بلفظها؛ لبسط الكلام بغرض الزيادة في دلالته في هزة إثر هزة، كما أحدثت لك الحركة المكررة رجا من حيث الاتحاد تناسقا بديعيا، فضلا عما تحدثه من ايقاع خاص ينسجم مع الدلالة على شدة الحركة وزلزلتها، فكانت هذه اللفظة بمثابة التوكيد؛ "لتثبيت الفكرة في نفوس السامعين، واقرار المعنى في قلوبهم"[١]، وفي إسناد رجت إلى الأرض عن طريق المجاز المرسل لعلاقة المكانية، فكأن المكان للشدة والهول استحوذ عليها، وهذا من كنوز المعنى وبيانه.

وجاءت حركة أخرى (وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا) معطوفة على (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) لما بينهما من التوسط بين الكماليين لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنىً، وفي العطف ما يبين تصوير قدرة الله في أسمى معانيها، فكما أن قدرة الله –تعالى– قادرة على رج الأرض، فهي قادرة على تفتيت الجبال وتطايرها في الهواء غبارا متفرقا، وثمة معنى بلاغي عالي في إيثار الواو من بين حروف العطف، وذلك للجمع بين هذه الحركات المتباعدة دلاليا، فالعطف بالواو له القدرة على الجمع بين عناصر متفرقة تنتمي إلى دلالات مختلفة، ليشير إلى أن البس الذي يحدث للجبال مغاير عن رج الأرض، وما بين هذه الآية والسابقة عليها سجع مرصع حيث اتفقت الألفاظ في الوزن والقافية، وبلاغته تكمن في أن هذه الحركة متماسكة مع ما قبلها، وكأن ما سبقها تمهيد لها، وتكرار لفظ (بس) يحدث تماسكا نصيا في استمرارية القرع على الآذان من تلك الكلمة المقررة، وفي الإتيان بقوله: (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا) شرح وتفصيل وبيان لحالة بس الجبال، ومن

١ – من أسرار التعبير القرآني الاستاذ الدكتور عبد الفتاح لاشين : ١٤٠ و ١٤١.

ثم أتى (منبثا) لتناسب تلك الحالة من هيئة بس الجبال وتطايرها وتفرقها في كل موضع، وفي جعل الجبال هباء تشبيه بليغ أي: كانت كالهباء المنبث[1]، وفيما سبق حركات جاءت على الحقيقة لأنها ماثلة شاخصة يوم القيامة قررتها الآيات وبينتها؛ لبيان عظم هذا اليوم وما يقع فيه من أهوال.

وجاءت حركة أخرى من جنس التي سبقت تحمل آثارها وتوابعها وأهوالها وزمانها وأوقاتها حيث قال الله تعالى: (يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً...المزمل١٤) والملاحظ عند الحديث عن حركة رجف الأرض كما في الآية التي معنا، والحركة في رجا كما في الآية التي سبقتها (إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا) يجد أن الله ذكر زلزلة الأرض في الآيتين رجت الأرض ورجفتها، ثم طوى الحديث عنها ولم يأت بصورة تشبيهية كما حدث في الحديث عن بس الجبال ورجفتها، فقال في التي معنا: (وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً) وفي السابقة (فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)، ولعل ذلك راجع إلى أن زلزلة الأرض ورجفتها معهود لدى المخاطبين وإن كان الرج غير الرج والرجفة غير الرجفة إلا أنه ترك للذهن مساحة للتفكير؛ ليذهب عقله كل مذهب في رجتها ورجفتها، كأن يقول إذا كانت الجبال تتطاير كالعهن المنفوش، فما بال الأرض وقد رجت ورجفت، أما الحديث عن تطاير الجبال الثابتة الشامخة لم تعرفه النفوس من قبل، فأتى بصورة تشبيهية حسية، حيث أبرزت لك الحركة وكأنها معروضة من قبل لأن الهباء معروف، أما رجت الأرض ورجفتها فنقلتها الحركة كما هي لتعبر عن نفسها بنفسها، وتشبيه الجبال حين الرجفة بالكثيب المهيل من التشبيه البليغ، حيث صور التشبيه تطاير الجبال في صورة حسية مشاهدة حتى تتمكن في الذهن عند سماعها، كما أن المشبه وهو كون الجبال تتطاير كالكثيب المهيل أمر مجهول،

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٨٤.

فأتى بصورة المشبه به للقياس عليه بما هو واضح أمامهم، ومن ثم فقد صور القرآن حركة الطبيعة بشيء معهود أمام الأعين؛ لتبقى الحركة خالدة في أذهانهم و"إن قل المشبه به وضؤل أمره، فهو لا يعني بنفاسة المشبه به، وإنما العناية كلها باقتراب صورتين في النفس، وشدة وضوحها"[١].

وثمة فرق بين رج الأرض وبس الجبال في آيات سورة الواقعة وبين قوله في سورة المزمل هنا: (يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ) من حيث إنه في الواقعة آثر النظم (رُجَّتِ، وَبُسَّتِ)، وفي المزمل والنازعات (تَرْجُفُ) ولعل ذلك راجع إلى أنه –تعالى– أتى برج الأرض وبس الجبال، لأن الواقعة قامت، ثم أتبعها الحديث عن أصحاب الميمنة، فلعل التخفيف من هنا، أما الرجفة للأرض والجبال بلفظ واحد تتناسب مع حال الكفرة والمكذبين وغيرهم من العصاة كفرعون، كما ناسب اللفظ سياقه من الهول والفزع، بدليل قوله: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)، وتأتي آية سورة النازعات برجفتها الرجفة ترادفها الأخرى؛ لتتناسب مع حال الكفرة ومنكر البعث، فتطلب السياق الحدة والقوة، فكانت هنا مكررة تعبر عن الصيحة الأولى والثانية ولم يسند إليها شيء؛ لكثرة ما ترجف به فلم يحدد لها مكانا، وعليه فالرجفة وإن كانت من جنس الرج إلا أنها أقوى وأحد منه يقول القرطبي: "وأصل الرجفة الحركة،... وليست الرجفة هاهنا من الحركة فقط بل من قولهم رجف الرعد يرجف رجفا أي: أظهر الصوت والحركة"[٢]، وفي إسناد الرجفة إلى الراجفة مجاز عقلي علاقته إسناد الفعل إلى سببه، لأن هذه الرجفة سبب للارتجاف والاضطراب، أو تكون العلاقة إسناد المبنى للفاعل إلى المفعول، فالراجفة ليست هي الفاعلة الحقيقي للفعل ترجف، وإنما أسند إليها؛ لتلبسه بها

١ – بلاغة القرآن الكريم في آثار القاضي عبد الجبار، أ.د/ عبد الفتاح لاشين ص ١٩٦، دار الفكر العربي، والبيان في ضوء أساليب القرآن الكريم، ص ٧٧ و ٧٨.

٢ – الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي: ١٩/١٩٥.

من حيث وقوعه عليها، ويفيد التجوز المبالغة في أهوال العذاب الذي أعده الله لهذا اليوم، وما فيه من اضطراب وتقلب وزلزلة، وقد جوز الشيخ ابن عاشور هذا من قبيل الاستعارة التصريحية من حيث كون الرجف مستعارا لشدة الصوت، فشبه الصوت الشديد بالرجف وهو التزلزل[١]، وأما قوله: (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) كناية لأهل الموقف جميعا، ونتيجة طبيعية لما حدث من الرجفة الأولى والثانية، وإيثار القلوب والأبصار من قبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، وإيثار واجفة دون خائفة، لأنها أعلى درجات الخوف، كما أنها ترتعد من شدة الخوف، وثمة معنى رفيع في إيثار الخشوع وإسناده للأبصار، لأنه علامة عليها يعرف الخوف من خلاله، ألا ترى لما وصف الله الخوف في قلوب المنافقين قال: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ. الأحزاب ١٩)، ومن ثم أضاف الأبصار إلى القلوب فقال أبصارها ولم يقل والأبصار خاشعة، وفي التعبير به مجاز مرسل علاقته المكانية.

وجاءت حركة أخرى ماثلة من قول الله على منكر البعث والحساب (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) قيل: هو استئناف بياني[٢] يجول في نفس السامع سؤالا مرده ما هي أصحاب القلوب الواجفة، فجاء هذا للرد يقولون، وعليه فإن الضمير في يقولون راجع إلى منكر البعث، وأنهم هم أصحاب القلوب الواجفة، والأبصار الخاشعة، أو يكون الكلام مسوقا إلى منكر البعث في قوله: (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ) عن طريق الالتفات[٣]، وإن كان الخطاب عاما، ولكن خصص لمنكر البعث لاشتهارهم بهذا القول، فنزل اشتهارهم به منزلة ذكرهم

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٦٧.

٢ – ينظر: المصدر السابق نفسه: ٣٠ / ٦٩.

٣ – ينظر: المصدر السابق نفسه: ٣٠/٦٩.

الصريح فصح عوض الضمير عليهم بهذا الاعتبار[١]، والإتيان بالمضارع يقولون لاستمرار إنكارهم للبعث، وتسجيل ذلك عليهم، والاستفهام هنا للإنكار أي: إنكار البعث بعد الموت والخروج للحساب، وقد اشتملت على عدة توكيدات لإنكار هذا الشيء المحقق الأكيد منها: إن وهي أم أدوات التوكيد واللام في (لَمَرْدُودُونَ)، وهذا يثير العجب من منكر البعث إذ هم ينكرون ويستبعدون عن طريق الاستفهام وأدوات التوكيد شيئا محققا سيقع، وظهرت تهكمهم في ذلك حتى سجل الله عليهم مواصلة حديثهم، فقال: (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً) لاستبعاد الخروج مرة أخرى، وهذا يدل على أنهم حشدوا من الأساليب والأدوات ما يبين ما في قلوبهم من إنكارهم لهذا اليوم.

وتأتي حركة أخرى ماثلة عند قيام الساعة حيث قال الله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. **الزلزلة ١:٢**)، وقد جاءت هذه الحركة في سياق الحديث عن أهوال يوم القيامة وقد زلزلت الأرض واهتزت، وخرج منها ما في بطنها من الموتى، فقد دار الحديث عن هذا الغرض، والإشارة إلى بيان ما قدم الإنسان من الخير والشر، وقد افتتح البيان بـ(إذا) التي تفيد التحقيق، والفعل الماضي بتقرير هذه الهزة حاصلة، وإن لم تقع بعد، فعبر عن ما هو للوقوع كالواقع، لأن الماضي أقرب إلى القطع بالوقوع؛ نظرا إلى لفظه الموضوع للدلالة على الوقوع، وإن كان بالنظر إلى المعنى على الاستقبال، لأن إذا الشرطية تقلب المضي إلى معنى الاستقبال[٢]، وبناء الفعل (زلزلت) لما لم يسم فاعله لوضوح الفاعل إذ لا يقدر على هذا إلا الله، ليوحي بعظم قدرته تعالى، وضاعف الفعل وتكررت حروفه للتهويل والتفظيع؛ لبيان حال أهل الموقف، فكأنهم لما "عنوا شده

١ – ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: ٤ / ٣٤١.

٢ – ينظر المطول ٣١٨.

الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل كما قالوا في كبكبه أي كبه"[1]، ومن ثم آثر البيان إذا، وبناء السورة عليها، وتصديرها بها فيه نكتة لطيفة إشارة إلى أن ما بعدها من إخبار الله تعالى لا يتحمل إلا صدقا في حتمية اهتزاز الأرض وزلزلتها، وإخراج الموتى أحياء منها، وقد تضمنت هذه الحركة بعضا من الأساليب البلاغية التي تصور التهويل والتفظيع والتفخيم مما أحدثته منها: إسناد الزلزلة والإخراج إلى الأرض عن طريق المجاز العقلي لعلاقة المكانية، فكأنها لشدتها واضطرابها استحوذت على الأمر، وهذا الإسناد يحرك ويثير عقل السامع، ويتخيل أن الأرض جاهدة نفسها بزلزلتها واضطرابها، وإخراج أثقالها، وكأنها لشدة اهتزازها تقذف ما بداخلها، فلا تبقي فيها شيئا، ويفيد هذا التجوز التهويل من شأن هذا اليوم، وشدة زلزلة الأرض وإخراج ما بداخلها، وقد جوز الشيخ ابن عاشور "أن تكون الزلزلة مجازا عن الأهوال والمفزعات التي تحصل يوم القيامة، فإن ذلك تستعار له الزلزلة"[2]، وأميل أن الآية تحمل على الحقيقة، لأنها تزلزل، ويكون منها الإخراج، لأنه لا يكون إلا أن تهتز الأرض وتزلزل فتخرج ما فيها من أموات، ولعل الشيخ الطاهر حمل معنى هذه الآية على قوله: (وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ.. البقرة ٢١٤)، لأن هذه الآية تشير إلى المجاز من أول الأمر، وسياق الآيات دليل عليها.

وفي وضع المظهر موضع المضمر في قوله: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَها) لإظهار مدى هذا الهول الذي لحق بها، كما أن الإظهار فيه صك لآذانهم حتى يعلموا هول هذا اليوم، لأن قدرا كبيرا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظا به،

١ – التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٩٠.

٢ – التحرير والتنوير ١٧ / ١٨٧.

ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه[١]، وقد جاءت الجملة معطوفة بالواو على التي قبلها للتوسط بين الكمالين، كما أن العطف بالواو دون الفاء يشير إلى التماسك بين الدلالتين زلزلة الأرض، وإخراج الأثقال منها، وهذا يفضي إلى التلاحم بينهما، وإن كان متباعدين كل واحدة منهما تنتمي إلى حقلها إلا أن الربط بالواو جمع بينهما، وفي التعبير عن الحركة الثانية بإخراج الأثقال من الأرض كناية عن إحياء الموتى، وإخراجهم من الأرض، ويبدو دور الكناية في أنه أتى بالمعنى مصحوبا بالدليل، فكما أن الأرض إذا اهتزت تخرج أثقالها وما في بطنها، فكذلك إخراج إحياء الموتى، كما أن مجيء هذه الحركة في صورة حسية أدعى لتأكيد المعنى ورسوخه في النفس مع تعظيمه وتفخيمه، حيث كنى بحركة إخراج الأثقال من باطن الأرض عن إحياء الموتى وخروجهم منها، عما يحدث يوم القيامة من أهوال تفزع القلوب، وتجعل الأبصار خاشعة، فليس المراد بالكناية المعنى المكني عنه فقط، وإنما الأحداث والأهوال التي ستقع، وذلك للإقبال على الإيمان بالله(ﷻ) والبعد عن الشرك ودحره، ومن ثم قال(ﷻ) فيها (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) فتكون الكناية تنبيها للمؤمن، وتحذيرا وردعا للكافرين.

وتأتي حركة أخرى تبين شدة الصراع بين الحق والباطل، والمعارك الضارية بينهما، وأن أهل الحق مهما زلزلوا وقتلوا فهم منتصرون، وأن الباطل إلى زوال مهما بلغت قوته، لأن هذا هو وعد الله(ﷻ)، كما أن هذه الحركة تبين مصاب المؤمنين، وما لحق بهم من شدة أهل الباطل عبر الزمان، وأن وعد الله محقق لكل فئة مؤمنة، حيث قال الله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم

١ – ينظر: خصائص التراكيب: الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى ص ٢٨٤ مكتبة وهبة الطبعة السابعة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩ م.

مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّىَ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَىَ نَصْرُ اللّهِ...**البقرة٢١٤)** في هذه الآية ربط الله(ﷻ) الحركة التي تبرز دخول أهل الجنة بالحركة المماثلة في الزلزلة، وذلك لتوجيه الأمة وإعدادها لتحمل مشقة أذية أهل الباطل وضررهم، والحض على الصبر في الجهاد والمحن، وأن ثمن ذلك هو تحقيق وعد الله بالنصر في الدنيا، والفوز بالجنة في الآخرة، وقد جمعت هذه الآية من الأساليب والصور والحركات ما يناسب المقام، حيث افتتحت بالاستفهام الذي حمله الزمخشري على التقرير وإنكار الحسبان واستبعاده[١]، وقد يكون حمل الاستفهام على الإنكار والاستبعاد أولى من حمله هنا على التقرير، ومجيء الحسبان في صياغة الماضي ليتناسب مع هذا الحسبان المحقق الواقع، وقوله: (وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ) لما لنفي الواقع في الحال مع الإيذان بقرب وقوعه عقب الحال[٢]، وفيه إشارة إلى المؤمنين بأنهم سيلاقون من المحن والابتلاءات ما يزلزلهم، ويرجف قلوبهم كالذين خلوا من قبلهم، وهذا القول بعد تهيئة وتمهيد لحركة قادمة كانت ماثلة فيما سبق من الأمم، ويعد هذا كناية عن الأهوال والمصائب والمحن التي ستكون للمؤمنين؛ ليحملهم على الصبر حتى يأتي النصر، وتأتي حركة أخرى كاشفة لبيان حال من سبقهم، وكيف مستهم البأساء والضراء (مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء) حيث وقعت من الجملة السابقة عليها موقع الاستئناف، حيث أبانت الجملة الأولى معنى أثارته في النفس يقول الخطيب: "أما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جوابا عن سؤال اقتضته الأولى، فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنهما، كما يفصل الجواب عن

١ – ينظر الكشاف : ١/ ٢٥٦.

٢ – ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن: ج١/ ١٨٣.

السؤال"[١]، ومعنى هذا أن قول مستهم البأساء ليس كلاما منقطع عما سبق، وإنما بينهما من اللُحمة والاتصال ما لا يتم المعنى إلا به وإن طال وامتدت فروعه، لأن مرده إلى الكلمة الأم أم حسبتم، لأنه لما قال هذا قيل: ما بال الذين خلوا من قبلهم؟ فوقع القول مستهم البأساء، ودقة التعبير بها واختيار حركة المس استعارة تصريحية، حيث عبر عن الشدة التي لحقت بهم والآلام التي أصابتهم إبان البأساء والضراء بالمس، وهذا يصور الأهوال التي لحقت بهم حتى كأنها لقوتها وعظامها فاعلة فيهم.

وفي جمع البأساء والضراء ما يصور تعدد المحن وكثرتها، وهذا الذي أوضحته الاستعارة الشاخصة، حيث شبه الأشياء التي أصابتهم من محن وابتلاءات، بنار تتوعدهم أو عدو يتحرك إليهم لإصابتهم، ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه هو المس، وتكمن بلاغة الاستعارة في أنها تبلغ مبلغا كبيرا في الإصابة، حتى كأنها تتحرك نحوهم وتمسهم، والتعبير بالمس يصور للسامع أن كل هذه المحن التي لحقت بهم من كرب ليس إلا مسا، وأن ما يضمر أشد وآكد، وهو ما صورته الحركة التالية في قوله وزلزلوا أي أنهم من كثرة المصائب حركوا واضطربوا، ومن ثم آثر البيان لفظ زلزلة، وإن غيرها لا يؤدي دورها، ولو أنك اجتهدت في أن تضع كلمة مكانها ما استطعت أن تؤدي معنى هذا الاضطراب النفسي العنيف[٢] ألا ترى أنه(ﷺ) ضاعف لفظة لتضعيف معناه، وإصابة دلالته، فكررت اللام والزاي لتبين شدة الزلزلة وما أصابهم، ومجيء اللفظ على الحركة في ثوب الاستعارة التصريحية حيث شبه خلجات الأنفس، وملامح الوجوه مما أصابهم من بلاء بالزلزلة بجامع الاضطراب في كل، وقد يكون اللفظ كناية

١ – الإيضاح : ٣/٩٧.

٢ – ينظر: من بلاغة القرآن ص١٤٩.

عن شدة الخوف والفزع لما أصاب القلوب من اضطراب، والأبدان من أهوال، فكأنها حركتهم تحريكا، وأما قوله: (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ) يصور أنه بلغت بهم الأحوال مبلغا جعلتهم يستعجلون النصر، ومجيء (حتى) التي تفيد الوصول وانتهاء الغاية، تصور ما لحق بهؤلاء ما طوى من أحداث ومصائب جعلت رسول الله ومن معه ينادون بنصر الله، وهذا لا يخفى على أحد أن وراءه من الشدة والمحن ما يبرهن أنها فاقت فيهم حتى كادت تهد الصبر هدا لولا التمسك بوعد الله في قوله: (مَتَى نَصْرُ اللَّهِ) يبين أنهم استعجلوا نصره، فقد ضاقت بهم السبل، وقطعت عليهم الأسباب، وأغلقت الأبواب، واستحال فتحها، حينها أتى وعد الله من الباب المستحيل (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) بأداة الاستفتاح التي تستفتح عقولهم إلى زمن جديد بحلول النصر، كأن الشدة التي لحقت بهم أغفلت عقولهم عن وعد الله القريب من المؤمنين، فأتى بها وبأم أدوات التوكيد (إِنَّ) والجملة الاسمية التي تقرر حلول النصر فيهم، وسبب تعدد المؤكدات أن الحركة الناجمة عن الأهوال والأفزاع قد أصابت الرسول ومن معه من المؤمنين حتى جعلت رسل الله يستعجلون نصرهم، وهم أهل الصبر على البلاء، فلعل ذلك راجع إلى طول مدة الزلزلة فيهم، وبطء النصر حتى دعا أكرم الناس بالنصر، فقوبل بالمؤكدات التي تقرر أن النصر قريب، وهذا فيه من البشارة ما يؤمن خوفهم ويذهب روعهم ويثبت قلوبهم، وهذا أول بشارات النصر.

وجاءت حركة أخرى تعبر عن حال المؤمنين حين حوصروا من الأحزاب حتى بلغ بهم الخوف مبلغا كبيرا لم أر وصفا قبله ولا بعده في القتال والحروب والمعارك، حيث عبر القرآن عن سبب هذه الحركة (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا) بحركات أخرى فقال(ﷻ): (إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا. الأحزاب ١٠،١١) في سياق تشابكت ألفاظه وتلاحمت معانيه فكل جملة

تقرر معنى معين، ثم تأخذ بمعناها عن طريق الربط بالواو إلى المعنى التي تليها؛ لتقف على الهول الماكن في صدور المؤمنين هنالك أيام حصار الأحزاب، فجاء النص متماسكا كل حركة منه آخذة بحجز أختها، فإذا غابت حركة لم تصل إلى الزلزلة التي أخبر عنها القرآن (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا) وهذا الذي عناه الإمام عبد القاهر في قوله: "وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ما تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعا واحدا، فاعلم أنه النمط العالي، والباب الأعظم والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه"[1]، ولقد صور القرآن حركة الأحزاب حين قدومهم على المؤمنين بالمجيء دون الإتيان؛ لما يحمله من شدة وعنوة صاحبت الأحزاب عند قدومهم على المؤمنين، وما يصور ذلك مجيء لفظ الطباق (مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ) حيث صورت هاتان الحركتان المعنى في صورة واضحة، وعرضت هذا الحادث وكأنه مشاهد ومعروض؛ لتقف النفس على المعاني المرادة من أنهم أحيطوا بهم وحاصروهم حصارا نتج عنه الفزع والهول، والتعبير بالأسفل والفوقية كناية عن كثرة عددهم وعدتهم، وشدة القرب منهم، وتمكنهم منهم تمكنا عظيما، ولا أدل على ذلك من تكرار الجر والمجرور منكم ثم تنقلك الواو إلى جملة أخرى تأتي إثر هذا البيان وتجمع معه في بوتقة واحدة؛ للتعبير عن هذا الهول حين قال: (وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) كناية عن ما أصاب المسلمين من فزع وهول في غزوة الأحزاب، وقد بينت الحركة اختلاع القلوب من أماكنها وارتقائها الحناجر والاضطراب النفسي والهول الشديد الذي لحق بهم، واللفظ استعارة تمثيلية حيث شبهت أحوال المؤمنين حين قدوم الأحزاب عليهم وقد خفقت قلوبهم واضطربت، بهيئة القلوب واقتلاعها، وصعودها إلى الحناجر، ثم استعير هيئة المشبه به للمشبه، وتكمن بلاغة

١ – دلائل الإعجاز: ص ٩٥.

الاستعارة في أنها حولت الصورة من شكل صامت إلى صورة متحركة، وجسمت الشيء المعنوي ونقلته إلى حركة حسية ملموسة يذهب عقل السامع في إدراكها والوصول إليها كل مذهب، إذ هي تريك حال المؤمنين يوم الأحزاب، وتصوره تصويرا بديعا مؤثرا يرسم حركات القلوب بعد زيوغ الأبصار، وما يدور في خلجات نفوسهم في معنى لا يدرك إلا بالظنون، كأن قلوب المؤمنين حينئذ وأبصارهم لا تغني الألفاظ عنها فنقلتها كما هي لتعبر عن نفسها، وهذا سر التعبير بالأبصار والقلوب دون سائر الجسد، فضلا عن أن ذكرهما لأنهما مواطن الخوف والخشية.

وأما قوله وتظنون بالله الظنون بالمضارع يستحضر لك هذا المشهد وكأنه ماثل أمام الأعين، لأن المضارع له القدرة على تصوير الحدث، ونقله من زمن بعيد إلى زمن حاضر مشاهد، وفرق بين الظن بالله في الشدة وبين قولك: وتظنون الظنون، فالأول يظهر تذكر المؤمنين بوعد الله لهم وما أعده لرسوله، فذهبت أرواحهم وأنفسهم في ذلك الوعد الذي وعد الله به رسوله، حيث قال تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا.الأحزاب٢٢) ومن ثم كان نصر الله لهم، لأنهم على الرغم من هذه الأهوال ظنوا بالله لا بأحد سواه، فكان النصر حليفهم.

وتأتي حركة أخرى في إثر التي سبقت تصف المؤمنين والأحوال التي لحقت بهم، واجتماع القوم للقضاء عليهم حيث يقول تعالى: (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا) ألا ترى أن الله قد أحال ذهن المخاطبين بالإشارة إلى هذا الحديث والمكان، فأتى باسم الإشارة هنالك المفيد للبعيد، وكأن هذا اللفظ يوجه المؤمنين عبر الزمان إلى هذه الفئة كي يسلكوا طريقهم إذا حلت عليهم الشدائد والمصائب واجتماع القوم للقضاء عليهم، حيث أفاد التعبير باسم الإشارة تمييز الحدث، وكمال إبرازه، وحضوره في الذهن السامع محسوسا مشاهدا؛

ليمسك بالخبر إمساكا لا ينفك، وذلك لإبراز قوة المخبر عنه المشار إليه، والتعبير بقوله ابتلى لما لم يسم فاعله لوضوح الفاعل وهو سبحانه المنفرد بذلك، كما أن هذا اللفظ يشير إلى الشدة التي حلت بهم، وكثرة البلاء النازل عليهم من أهل الأحزاب حتى إنه لم يسند لفاعل معين، والتعبير بالمؤمنين في هذا المقام فيه بلاغة عليا، لأن الله ما ساق إليهم هذا البلاء إلا ليميز الخبيث من الطيب، فكأنه يريد أن يفردهم إفرادا لذلك ابتلاهم بتمحيصهم، ولا أدل على ذلك من مجيء الحركة زلزلوا التي تبين كثرة الشدة وطول الوقت لتنقيتهم، ومن ثم جاءت في إثر هذا البلاء الحركة الماثلة في قول الله: (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا) فلا تجد لفظا أبر بالمعنى السابق من لفظ زلزل، وفضلا عن هذا الإسناد العقلي فيه من إسناد الزلزلة للأهوال، وما فيه من المبالغة في إثباتها للمؤمنين، فإن لفظ الزلزلة وما فيه من الاستعارة التصريحية التي عبر فيها عن شدة الاضطراب والخوف والخشية في قلوبهم، بالزلزلة ما يفيد عظم البلاء، وقوة الأهوال، وهذا مفاد تكرار اللفظ بعينه زلزل؛ لمزيد ذلك الاهتمام بشأنه المرة بعد المرة[١]، ووصف هذه الحركة (شَدِيدًا) في إثبات الشدة للمصدر المبين للنوع زلزالا، وختم الأهوال بها ليظل هذا الوصف عالقا في الذهن.

وتأتي حركة أخرى تعبر عن شدة أكثر وأهوال أكثر وزلزلة أشد مما سبقت إنها زلزلة يوم القيامة الماثلة في قوله تعالى: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. **الحج١**)، وهذا بيان لمعنى يا أيها الناس اتقوا ربكم، وقد افتتحه الله(ﷻ) بالنداء يا أيها للتنبيه على عظم الأمر المدعو له، وعلو شأنه حتى كأن المنادى مقصر فيه، تنبيها يدعو إلى الاهتمام بالأمر وسماعه بذهن يقظ، لأن المنادى يوقظ النفس، ويلفت الذهن، فإذا جاء الأمر بعده صادف نفسا مهيئة واعية، فوقع منها

١ – ينظر: دليل الفالحين: لابن علان ٩/٢.

موقع الإفادة، ومن ثم آثر البيان **(يَا أَيُّهَا)** لأنها آكد في التنبيه على الأمر الحاصل بعدها، فـ" الألف والهاء اللتان لحقتا أي توكيد، فكأنك كررت يا مرتين إذا قلت: يا أيها"[١] وقد كثر هذا في القرآن الكريم؛ "لاستقلاله بأوجه من التوكيد، وأسباب المبالغة، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه... وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتض الحال أن ينادوا بالآكد والأبلغ"[٢]، وإنما خصصت هذه المعاني وغيرها بالابتداء، "لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه"[٣]، ومن ثم آثر البيان (يَا أَيُّهَا النَّاسُ)، لأن هذا النظم مقدمة وتمهيد مناسب إلى ما يأتي بعده من مقامات البعث والساعة، ومن ثم ناسب ذلك التوكيد الحاصل (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ)، والتنبيه على تقوى الله، والتذكير بأهوال يوم القيامة، فعد هذا إنذارا من الله للناس، وإذا نظرت إلى هذه الحركة (زَلْزَلَةَ)، وما يقع فيها من أحوال يعجز الحديث عن بيانها عرفت أن القرآن نقلها هكذا؛ لتذهب نفس السامع في بيانها كل مذهب؛ ومن ثم أصابت المعنى وكانت بارَّة به، وعرفت أن الغرض اتصال أهوال يوم القيامة وزلزلتها، وعظم هذا اليوم بتقوى الله عز وجل، ولا أدل على ذلك من مجيء (إِنَّ) وإفرادها دون اقتران بالفاء، لأنه يريد أن يكون هذا الكلام قد أفرغ إفراغا، وسبك في قالب واحد، ولو جاء بالفاء لزال هذا السبك وحاصلة المغايرة، ولا أدل على ذلك من "أنك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغ افراغا واحد، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر، حتى إذا جئت إلى (إِنَّ) فأسقطتها رأيت

---

١ – الكتاب لسيبويه: ١٩٧/٢.

٢ الكشاف للزمخشري: ٩٠/١.

٣ – المثل السائر لابن الاثير: ٣/ ٩٨.

الثاني منهما قد نبا عن الأول"[١]، وبعد التنبيه على تقوى الله(ﷻ) استشرفت نفس نفس السامع وتطلعت لمعرفة السبب لهذا الأمر، وكأنها توقعت أن يكون الخبر من جنس ما سبق، فجاء قوله: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) بيانا للسبب، وذلك لتنزيل خالي الذهن منزلة السائل عن سؤال خاص يلوح إليه الكلام السابق فيترك النفس مستشرفة له استشراف الطالب المتحير يتميل بين إقدام للتلويح وإحجام لعدم التصريح، فيخرجون الجملة إليه مصدرة بإن، وهذا من كمال البلاغة وإصابة المحل[٢]، وجاء المجاز العقلي ليدلي بدلوه في تصوير صورة الزلزلة، وكأنها الفاعلة للمبالغة في استحواذها على الأشياء ومطاوعتها لها، وفي إضافتها للساعة، وتعريف الساعة بأل يوضح ارتفاع شأنها، ليريد من إضافتها أنها زلزلة معروفة بها؛ لتضفي عليها الأهوال التي تعرف بها، وكأن لم تكن زلزلة معهودة من قبل إذا هي حدثت وحلت، ثم شرع البيان بإخبار السامع عن بعض الأهوال التي تقع من خلال هذه الحركة الماكنة في قوله زلزلة ونتيجتها أنها يوم تأتي يرون من أهوالها أنها (تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) لتأتي الاستعارة التمثيلية في البيان السابق كاشفة للمراد من حيث الحركة، وما ينتج عنها من أهوال يوم القيامة، فقد شبهت أحوال الآخرة عند قيام الساعة وزلزلتها، وما أحدثته من أهوال حتى يتناسى المرء أحب ما عنده من فلذات كبده وثمرة فؤاده، بهيئة المرأة الحامل التي تضع حملها بنفسها قبل تمامه، وذات المرأة المرضعة التي تذهل وتمتنع عن رضيعها، ثم استعير الهيئة المركبة من المشبه به للمشبه، وقد تكمن بلاغة الاستعارة في أنها أضفت على السامع بيان جزء من مقدار الحركة

١ – دلائل الإعجاز ٣١٦.

٢ – ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي: ١/ ١٧٢.

الماثلة في زلزل، وصورتها تصويرا بديعيا، أخرجت فيه المعنى المعنوي إلى صورة حسية مشاهدة يقل وجودها ونضرتها في الوجود؛ لتذهب بها نفس السامع كل مذهب في هولها وفظاعتها؛ لتفخيم هذا المنظر وتجسيمه في هذا الجو، والمشهد الماثل يوم القيامة؛ لتوضيح الفكرة مع الإيجاز للوصول إلى الغرض.

حركة التقلب قال تعالى: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ...**الكهف١٨**) جاءت هذه الحركة في سياق الحديث عن أهل الكهف حين أووا إلى كهفهم، فضرب الله عليهم النوم، ثم بين الله حالهم وهيئتهم في مدة نومهم، فجاءت بعض الحركات التي تدل على أنهم أحياء منها: هذه الحركة تقليب أجسامهم ذات اليمين وذات الشمال، وقد جاءت هذه الحركة وسط بوتقة من المعاني والألفاظ تبين عظمة الله وقدرته حين ضرب النوم على أهل الكهف، وجعل حالهم للناظرين كأنهم أحياء يتقلبون في نومهم، فأتى بالمضارع تحسبهم، والذي يصور تجدد الحسبان عند النظر إليهم المرة بعد المرة، كأنك حين تراهم وتشاهدهم وهم على هذه الحالة تظن أنهم أحياء، وهم في الأصل رقود، وفيه تشبيه حيث شبه أهل الكهف في حالة رؤيتهم وهم نائمون، بالإيقاظ وأداته الحسبان، وهو فعل من أفعال الشك ينبئ عن التشبيه وما قارب الصدق، وهو لم يفد التشبيه بنفسه، وإنما أفاده بأداة مقدرة[١]، وبين الإيقاظ والرقود طباق للإيذان بقدرة الله في إحياء أهل الكهف في نظر القوم تلك المدة وهم في الأصل راقدون نائمون، ليترك مساحة للتفكير، ليتدبر آيات الله في هيئة هؤلاء وهم بين اليقظة والنوم، وإبقائهم هذه الفترة الطويلة، وهذه الجملة الحالية (وَهُمْ رُقُودٌ) جاءت بجمع الكثرة مبالغة في استغراقهم في النوم، وأنهم كانوا يغطون فيه غطا، وتأتي الحركة التي تبين للناظرين أنهم في حالة الإحياء

١ – ينظر: عيار الشعر: لابن طباطبا : ص ٢٤، طبعة شركة فن الطباعة ١٩٥٦ م.

معطوفة على ما سبق (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)، وقد جاءت في ثوب الفعلية المضارعة ليتناسب تقليبهم مع مدتهم التي مكثوا فيها، وكأن المضارع يعطيك الحركة المتجددة بين الحين والآخر؛ ليصور حالهم وهم رقود في كهفهم، والإتيان بلفظ التقليب دون لفظ التحريك؛ ليتناسب مع حالة النائم كما أن التحريك قد يكون لجهة واحدة فقط؛ فيظن أنهما أموات حركتهم الريح والعواصف ومتغيرات المناخ؛ ومن ثم آثر القرآن لفظتي الطباق الماثل في قوله: (ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) كما يتقلب النائم، فالطباق يشير إلى عدم مكثهم على حالة واحدة "لعل لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة"[1]، والضمير راجع إلى الله (ﷻ) وجل ليبين رعاية الله(ﷻ) لهم وعنايته بهم، وفي الجملة إيجاز تقديره: ونقلبهم ذات جهة، وتكرار الظرف مع الجهتين؛ للإيذان بأن المراد تقليب أجسادهم إلى اليمين مرة، وإلى الشمال مرة أخرى لا ناحية اليمين والشمال، ففي الظرفية إشارة إلى تقليب أجسامهم ثم رجوعها مرة ثانية كما يحدث للنائم، وهذا هو الظن الماثل لمن قدر له النظر إليهم فرآهم أيقاظا وهم في الواقع نيام، وقد وقعت حركة أهل الكهف وسجلها القرآن بين حركتين في ثوب الطباق؛ لتكمن الحكمة والقدرة، لأنه لا يكون التقليب إلا على جهتين جاء الطباق بهما ليصور للناظرين إليهم، والمستمع للحديث عنهم أنهم لا يزالون أحياء بحركتهم ذات اليمين في حالة سكونهم واستقرارهم على نومهم، ثم إعادتهم على الأخرى واستقرارهم عليها، وهكذا حتى بعثهم الله (ﷻ)، وجاءت حركة أخرى ضد المعنى السابق في وصف كلبهم (وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)، وكأن ذكر هذا الكلب دليل آخر على شدة ظن المطلع عليهم بأنهم أيقاظ، لأنه في حالة كونه باسط ذراعيه بالجملة الاسمية الماثلة في التعبير بالمبتدأ والخبر الذي جاء على صورة

١ – التحرير والتنوير: ١٥/ ٢٨١.

اسم الفاعل ليفيد الثبوت والدوام أي: إثبات الحراسة لهم، وعدم مغادرتهم لحظة، وفيه آية من آيات الله لهم، لأن الكلب على هيئته هذه يكون أشد اليقظة للحراسة فيمنع الوصول إليهم لمعرفة أحوالهم، فالكلب وإن ضربت عليه المدة مثلهم إلا أنه مغاير لهم في الوصف، ومن ثم جاء القرآن بقوله: (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) أي: لو شئت الاطلاع عليهم، ومعرفة أحوالهم لم يكن منك إلا الفرار والخوف، فالاطلاع عليهم بهذه الهيئة من الأمور الغريبة العجيبة، ومن ثم آثر النظم التعبير بالشرط (لو) وهو حرف امتناع لامتناع ردعا وخوفا ورهبة لكل من يقرب ناحيتهم، ومن ثم آثر البيان الاطلاع اطلع ولم يقل: لو رأيتهم، لأن الرؤية تكون رؤية بصرية محققة، أما الاطلاع فلأن حالتهم العجيبة ومعهم كلبهم قد حال بينه وبينهم فقال اطلع كأنه لو وقع فيكون عن بعدٍ صاحبه الفرار، كما أن الفعل اطلع فيه من التفخيم ما لا يوجد في رأي وهو يتناسب مع أهل الكهف، وهكذا حفظ الله أهل الكهف بحركة بسيطة تنبئ عن معجزة الله وقدرته.

وجاءت حركة تبين قدرة الله وإحاطته بعباده قال تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ. **محمد ١٩**) هذا النظم القرآني الكريم تزييل لبيان تأكيد علم الله(ﷻ) لعباده من أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم، للترغيب في إخلاص العبادة له، والتحذير من الوقوع في المعاصي، حيث جاء هذا النظم إثر قوله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) بالأمر الذي خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازي وهو الثبات والدوام، أو يكون القصد من الأمر، الإلهاب والإثارة بقصد الحث على الفعل، لأن هذا الأمر وهو العلم حاصل عند رسول الله(ﷺ)، فتوجيه الأمر إلى شيء حاصل للإثارة، واللفظ كناية عن طلب العلم والعمل به للنبي(ﷺ) ومن معه من المؤمنين، وكذلك الأمر في واستغفر لذنبك، وهو أكثر(ﷺ) الناس استغفارا، ومن ثم فإن الله جاء إثر هذا ببيان علمه بمتقلبهم ومثواهم في بوتقة من الأساليب

منها: تقديم المسند إليه لفظ الجلالة الله على الخبر الفعلي (يعلم) لسر بلاغي هو الاختصاص أي: اختصاص الله(ﷻ) بأنه وحده هو الذي يعلم المتقلب والمثوى، حيث أفاد القصر إثبات الحكم لله(ﷻ)، ونفيه عما سواه قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا، وناسب المضارع نظم البيان، لأن التقلب والمثوى يتجدد وقتا بعد وقت والله مطلع عليه وعالم بالأحوال، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وبين حركة التقلب والمثوى طباق خفي، لأن التقلب بمعناه وهو الحركة للمعيشة، والمثوى الاستقرار في المنازل، قوبل بين الحركة والاستقرار، وقد يكون التقلب في حياتكم، ومثواكم في القبور، أو متقلبكم في أعمالكم، ومثواكم في الجنة والنار[١]، وإن حمل المثوى على القبور أو الاستقرار في المنازل، أصوب منه حمله على الجنة والنار، فيكون المعنى أن الله يعلم تقلبكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، وهكذا بينت هذه الحركة إحاطة الله بعبادته وعلمه بأحوالهم.

وأما قوله: (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ. **الشعراء ٢١٩**) تشير هذه الحركة إلى قدرة الله وعنايته برسوله(ﷺ)، وقد جاءت معطوفة على قوله: (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) لما بينهما من التوسط بين الكمالين، وجاء بالاسم الموصول (الذي) للإيماء إلى وجه بناء تحقيق الخبر، والفعل المضارع لتجدد الرؤية حين الإقامة، وفيه مزيد العناية برسول الله(ﷺ)، فالمراد من قوله (يراك) رؤية خاصة، وهي رؤية الإقبال والتقلب كقوله: (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا..الطور٤٨)[٢]، لأنه لما تبرأ(ﷺ) من أعمال المشركين وكفرهم ناسبه التوكل على العزيز الذي يكفيه شرورهم ومكايدهم، ويشمله(ﷺ) برحمته ومن تبعه، فالعزة في مقابل كفرهم، والرحمة له(ﷺ) ومن

١ – ينظر: الكشاف للزمخشري: ٤ /٣٢٤.

٢ – ينظر: التحرير والتنوير: ١٩ / ٢٠٤.

تبعه، وفي إيثار العزيز الرحيم ما يناسب القهر لأعداء الله بعزته، ويشمل برحمته أحبابه المؤمنين، وقوله: (حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ للإيذان بقرب العبد، وفضل القيام والسجود، وقد يكون المراد من الساجدين المصلين، ويكون المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة، وتقلبك في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده، أو أنه لا يخفى عليه حالك كما قمت، وتقلبك مع الساجدين[1]، وعليه فإن معنى حرف الجر في قوله: (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) بمعنى على، ثم أتبع الحركة (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) بعدة مؤكدات لتحقيق المعنى، وتقريره بتأكيد مضمون الخبر للدلالة على كمال قدرته، وإحاطة كماله بجميع الأشياء، فالسمع والعلم في إجابة توكله وتكفله وإحاطته به.

وتأتي حركة أخرى تبين قدرة الله حيث قال: (يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. **النور ٤٤**) هذه الآية امتداد لقدرة الله وتمجيده بآياته في الحياة من أبرزها التذكير باعتبار حركة الليل والنهار، وقد جاءت هذه الحركة إثر نظم مليء بالآيات الكونية التي تدل على قدرة الله(ﷻ)، وأنه وحده الصانع حيث قال: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ)، وذلك لبيان توكيد الخبر وتحقيق مضمونه، ثم أجرى عليه حركة السحاب، والتصوير الواقع فيه (يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) عن طريق الاستعارة التصريحية التي عبر فيها عن الضم بالتأليف والجمع في جامع الانقياد في كل، ثم يريك مرحلة نزول المطر في رؤية بصرية، ثم يريك مرحلة أخرى حيث استعيرت الجبال للماء، فشبه الماء ومنابعه بالجبال في عزتها وفخامتها، ثم مجيء الطباق الذي يبين حكمته عند إصابة الماء لمن يشاء وصرفه عن من يشاء، ثم ختم بالمبالغة الماكنة في الفعل يكاد، حيث شبه السنا وهو البرق بالقوة

١ – ينظر تفسير الرازي: ٢٤ / ٥٣٦.

التي تذهب الأبصار، ثم أتبع ذلك بالعبرة لأصحاب القلوب، وهم أولوا الألباب الذين فطنوا إلى قدرة الله وحكمته، ثم جاء قوله: ((يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) بجملة خبرية تثبت في نفوس المخاطبين أن الذي أجرى الآيات الكونية السابقة له القدرة على حركة الليل والنهار؛ لذا جاء خاليا من توكيد حركة الليل والنهار لوضوح الخبر، وهذا هو الفرق بين الآية وبين قولنا: الله يقلب الليل والنهار، ومجيء الحركة في ثوب المضارع للدلالة على تجديد الحركة وحدوثها كل يوم، لأنها سنة من سنن الحياة، وآثر النظم القرآني هذه الحركة في ثوب المجاز حيث عبر عن تعاقب الليل والنهار، وولوج أحدهما في الآخر وتغيير أحوالهما بالتقليب بجامع التغيير في كل، ولقد بينت هذه الاستعارة قدرة الله وعظمته في تعاقب الليل والنهار، ومطاوعة هذه الآيات له سبحانه، وقد ناسب التقلب نظم الآيات فتأمل خروج الماء من السحاب، ثم تراكمه بعضه فوق بعض، ثم خروج الماء منه، ثم مرحلة تقليب السنا كل ذلك في جو مليء بالتقلبات، فتجد أن هذه الآيات قد خرجت وتقلبت من الشيء الواحد، وظهر الماء والظلمة والنور، فقد غلب التقلب على النظم، فناسبه خروج النور من بين الظلمات، وقد ظهر من خلال ما سبق تلاحم هذه الحركة بالنظم السابق عليها، ومن ثم جيء بهذه الحركة غير معطوفة على ما سبق، لأنه يريد أن ينقل السامع من الاستدلال بما قد يخفى على بعض الأبصار إلى الاستدلال بما يشاهده كل ذي بصر كل يوم وكل شهر حتى إنه لا يكاد أن يخفى على ذي بصر[١].

وقد جاء إثر هذه الحركة نظم بني على التوكيد بـ(إنَّ)، وتقديم المسند على المسند إليه حيث قال: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ) وقد أفاد تقديم المسند بجوار الإشارة إلى أهمية الخبر وتأكيد الحكم، وتقرير أن في هذه الآيات عبرة

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ١٨ / ٢٦٤.

لأصحاب العقول مع تنزيل المشركين في تركهم الاعتبار بهذه الآيات منزلة من ينكر العبرة في تقليب الليل والنهار كأنهم لا عقول لهم ولا أبصار، لأنها لما جحدوا آيات الله وكفروا به قصرت العبرة على أصحاب الألباب والأبصار وهؤلاء لا عقول لهم لإعمالها ولا أبصار يشاهدون منها آيات الله، ومن ثم لم ينتفعوا بأعمالهم حيث قال مقدمة: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ).

حركة التقلب المزموم قال تعالى: (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا. الكهف٤٢) تأتي هذه الحركة –تقليب الكفين– في نظم تسيطر عليه الحسرة والندامة إثر هلاك جنته التي أصبحت خاوية على عروشها نتيجة كفره بربه وجحود نعمته، حيث صور القرآن الكريم نعمة هذا الرجل في أبهى صورة، ثم حدد مزاياها من بين جنتين من أعناب محفوفتين بالنخل، في وسطهما زرع، ويتفجر من بينهما نهر كل واحدة منهما أخرجت أجود الثمر لم يفت منها شيء، فإذا هو ينكر نعمة ربه عليه ويجحدها، ويكفر بلقاء ربه، وفجأة ينقلب المشهد ويصور القرآن الكريم حالة الرجل وينقلها كما هي، وكأنك تشاهد الموقف وتراقبه، فإذا به ينتقل من مشهد النعمة وازدهارها إلى مشهد البؤس والدمار والبوار، حيث عبر القرآن بقوله: (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) كناية عن الخراب التام الذي استولى عليها والدمار الذي لحق بثمره من كل جانب، وجاء الفعل مبنيا لما لم يسم فاعله؛ للإيذان بشدة الهلاك التي لحق بثمره وعظمه وبغته وهوله، كما أنه أفاد الإشعار بأن فاعله متيقن وهو العذاب الذي أرسله الله(ﷻ)[1].

وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: أحيط العذاب، وفيه بيان سرعة الأخذ والهلاك الذي لحق بالجنة، والتعبير بالثمر تصوير بديع يصور لك تلك الجنتين،

١ – ينظر: التفسير الوسيط: ٨ / ٥٢١.

وقد أصبحت تؤتي ثمارها وحصادها، وهذا له أثره في الحركة –تقليب الكفين– لأنه يظهر شدة الندم والحسرة على ما أنفق في إعمارها ومراعاة ثمرها وجهده الذي ذهب سدى، فبعد أن أصبحت جنته صارت نقمته وفجيعته، وهذا سر التعبير بالثمر الذي هو المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، حيث أطلق الثمر وأراد الجنة كلها، وجاءت حركة تقليب اليدين في قوله: (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) بالعطف بالفاء التي تفيد السرعة، والترتيب على ما سبق؛ لبيان ما اقترفته نفسه من ظلم بين حين أشرك بالله، وسر التعبير بالفاء لأنه لما نظر إلى ثمره بعد كفره بربه لم يتمالك أن حرك إحدى يديه على الأخرى حسرة وندامة له، فعبر القرآن عن هذه الحركة، ونقلها كما هي من غير مهلة، ليريك ما أصبح فيه من حسرة وندامة وحزن على ماله وجهده الضائع منه، وفي حذف اسم أصبح ما يبين أنه لم يعد له ذكر ولا شأن ولا فضيلة لما كفر بربه، وقد جاءت الحركة في ثوب الكناية عن صفة حيث عبر عن ندمه وحسرته بتقليب كفيه حزنا على ما فات، وتبدو بلاغة الكناية في أنها أضفت على المعنى صورة حسية مشاهدة صارت مرتبطة بالحزن والأسى، وهذا أدعى لرسوخ المعنى وتأكيده، وذلك لأنه جاء مصورا تصويرا واقعيا بديعيا حين عبر عن فجيعته بتلك الحركة، وجعلها في صورة المضارع يقلب، لأنه يأتيك من زمن بعيد ويجعله حاضرا أمام السامع في صورة متجددة، كما أنه أضفى على صاحب الجنة تكرار حزنه وألمه بتكرار يده مرة بعد مرة، وأما قوله (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) بيان لحال الجنة التي أصبحت محطمة على عروشها، وهي جملة تكاد تستنطق بحال هذا الرجل الذي كان يملأ قلبه الكبر والفخر أين الجنتان والثمار والأنهار والولد؟ كل ذلك لم يستطع أن يدافع عنه عند حلول البلاء، فأصبح يقلب كفيه، وأتى بالجر والمجرور على عروشها؛ ليدل على أنها لم يعد منها موطنا صالحا، فأصبح الخراب مستعليا عليها حتى إنه لم يترك شيئا إلا وقد استولى عليه، وقد جاء بجوار الحركة المعبرة عن الندم بنظم يشير إلى الآلام والأحزان التي تنبعث من

داخله، فأتى بأداة النداء المستعمل في التلهف، وأردفها بقوله ليتني تمنى مراد به التندم وأصل قوله: (يَا لَيْتَنِي) أنه تنزيل للكلمة منزلة من يعقل كأنه يخاطب كلمة ليت يقول: احضري فهذا أوانك(١)، لفرط ما هو فيه من حزن صار يتخيل أن الويل والحسرة يسمعان ويجيباني فناداهما، وهذا ينبئ عما بداخله من ندم، وقد أرجع أمره إلى سبب هلاك ماله حين أشرك بالله، وهكذا أسدل الستار على هذا المشهد في لحظة يتجدد مشهدها في كل وقت، لحكمة بيان الحياة الدنيا ومفاتنها وزخرفتها، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ساعتها يأتيها أمر ربها.

وشبيه بهذا متاع الكافرين في الدنيا من النعم والسرور والراحة حيث يقول الله تعالى: (لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ. **آل عمران ١٩٦، ١٩٧**) أي: لا يخدعنك حركة الكافرين، وتنقلهم بين البلاد، ونفوذهم عليها، وتبسط العمراني، وسعة رزقهم فيها، وغير تلك المشاهد التي يتجبرون فيها بما سينالهم في الآخرة من عذاب دائم، وقد سجل القرآن هذه الحركة عن الكافرين بالتقلب الذي يتناسب مع النعيم الزائل المتقلب بين الحين والآخر، وقد جاءت هذه الحركة في عقب أسلوب النهي فقال(ﷻ): (لَا يَغُرَّنَّكَ)، وفيه قولان: أولهما الخطاب لرسول الله(ﷺ)(٢)، فيكون حمل النهي حينئذ على معنى الإثارة والإلهاب والتهييج، وذلك لأن النهي هنا موجه إلى رسول الله(ﷺ)، وهو الذي لا يتصور منه حدوث الفعل، وإنما كان النهي لمعنى غير حاصل عند رسول الله(ﷺ)، وإنما جاء بصيغة النهي؛ ليزداد تمسكا بما هو عليه من عدم النظر في التمتع الزائل الذي عليه الكافرون، والثاني أن يكون الخطاب لكل من

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ١٥ / ٣٢٧.

٢ – ينظر: الكشاف : ١/ ٤٥٧، وتفسير الرازي: ٩ / ٤٧١.

يسمعه من المكلفين كأنه قيل: لا يغرنك أيها السامع[١]، والنهي حينئذ للإرشاد الَّا يغتروا بهذه الأطماع الزائلة التي يتمتع بها الكافرون، وقد جاء بصيغة النهي رغبة في الاستجابة والامتثال والدوام على الَّا يطمعوا فيما يتقلب فيه المشركون، ومجيء حركة التقلب في ثوب المضارع؛ للإيذان ببسط نفوذ الكافرين في البلاد، وسيطرتهم عليها في صورة مستمرة مستجدة توحي بامتلاك الدنيا واستحواذهم عليها، وافتتانهم بزخارفها، وفي إسناد الغرور إلى التقلب مجاز عقلي علاقته السببية، مبالغة في كثرة تقلب الكافرين في البلاد وتمتعهم بالدنيا، واللفظ كناية عن كثرة الترف والغنى.

والنهي الحاصل عن الغرور من حركة وتنقل الكافرين يقتضي التعليل، فأتى قوله: (مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)، تعزية للمؤمنين وتسلية لهم عما يرونه من غنى وسلطان للمشركين[٢]، والمتاع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو وإنما حذف لتسلط الضوء على هذا المتاع الزائل، ومجيء المتاع في ثوب النكرة لبيان العموم، ووصفه الله(ﷻ) بالقليل ليريك سرعة زوال هذا المتاع، وعدم استمراره واستقراره، ولابد لهذه الحركة تقلب من مأوى ومسكن تستريح فيه وتستقر به بعد التقلب، فعبر القرآن بـ(ثم) العاطفة والتي تدل على فترة تمتعهم بالحياة الدنيا بمتاع زائل، وانتقالهم إلى مصيرهم الدائم في الآخرة (مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) فالطباق الحاصل بين تنقلهم في الدنيا ومتاعهم فيها، واستقرارهم وعذابهم في جهنم يريك سوء المنقلب، وكأن هؤلاء لا يستقرون إلا في نار جهنم أي: لا يغرنك تنقلهم بين البلاد فمستقرهم ومسكنهم جهنم وبئس المهاد، والتعبير بالمجاز العقلي في (بِئْسَ الْمِهَادُ) يريك سوء المنقلب، لأنه أسند القبح وسوء

١ – ينظر: تفسير الرازي ٩/ ٤٧١.

٢ – ينظر: التفسير الوسيط: ٢/ ٣٨٠.

المصير إلى الفراش، وهو المهاد عن طريق العلاقة المفعولية، مبالغة في تحقيق شأنهم ومنزلتهم، واللفظ مِهَاد استعارة تصريحية حيث عبر عن مستقرهم في نار جهنم بالمهاد، وتكمن بلاغة الصورة في أنها تعطي السامع المعنى في أوضح بيان؛ ليقف بنفسه على القدر الحاصل بين حالهم في الدنيا، ومتاعهم الزائل فيها، وبين استقرارهم في جهنم وعذابهم فيها.

وجاءت حركات أخرى تبين حال الكافرين في نار جهنم وتقلبهم فيها، حيث قال(ﷻ): (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا. **الأحزاب:٦٦)** جاءت هذه الحركة في ثوب الحقيقة، والتي تبين سوء المنقلب فقال: (تُقَلَّبُ) بالفعل المضارع الذي يفيد تجدد تقلبهم في النار كلما نضجت جلودهم، فهم في عذاب دائم يتجدد لهيبه عليهم، وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ للتهويل والتفظيع، فهم يتقلبون ويتبدلون ويتغيرون دون معرفة الفاعل وهذا أهول، لأن قوة الفعل مع خفاء الفاعل تثير الرعب فيما وقع عليه العذاب، فلا يعرف من أي جهة يأتي التقلب، كما أن بناء الفعل لما لم يسم فاعله يشير إلى سرعة التقلب، وشدته إقبالا وأدبارا إلى غير ذلك من جهات التقلب، واللفظ كناية عن أهوال يوم القيامة وشدة أهل النار، وتغيير ألوانهم فيها، وفي التعبير بالوجه مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث عبر بالوجه وأراد جميع الجسد، وخص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء، لأن حر النار يؤذي الوجوه أشد ما يؤذي بقية الجلد، لأن الوجوه مقر الحواس[١]، أو أن يكون الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده[٢]، فجاء به لأنهم كانوا يظنون بمتاعهم وكثرة ترفههم أنهم أكرم الوجوه وأعزها، فقوبل ذلك يوم القيامة بالذل، لأنه مناط العز والذل، والعرب تخبر

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٢٢ / ١٦.

٢ – ينظر: الكشاف: ٣/ ٥٦٢.

بالوجه عن جملة الشيء[١]، وحقق المجاز هنا المبالغة في المعنى وأضفى عليه التقرير والتأكيد، لأنه جعل اللفظ منصبا على جزء معين يتخيله السامع فيعظم عليه تخيَّل ما يتصوره من هذا الأثر الناجم عن تخيل الكل، فما ظنك بسائر أعضاء الجسد؟ ومن ثم يعظم المعنى البالغ المتجاوز في حد العذاب عنده، فتحصل عنده الصورة مشاهدة من خلال تخيله، والجر والمجرور في النار بعد حركة التقلب فيه مشهد قوي، وحركة سريعة، حيث عبر بفي التي تفيد الاستغراق لتخبر بأن النار تحيط بوجوههم ن كل جانب، وتصوير يرسم هيئته الكافر في النار وهو خالد فيها يتقلب، وهكذا أفصحت الحركة عن مدى عذاب الكافرين يوم القيامة.

التقلب المحمود وتأتي الحركة المحمودة التي تبين فضل الله وكرمه على عباده الذين استجابوا له حيث يقول(ﷻ): (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ. **آل عمران:١٧٤)** هذه الحركة جاءت في سياق الحديث عن المجاهدين الذين استجابوا لله والرسول، وخرجوا لملاقاة الأعداء بعد أن قيل لهم: إنه قد جمع لهم جموع كثيرة من القوم فخافوا على أنفسكم، فما زادهم هذا إلا إيمانا حين ارجعوا أمرهم إلى الله إنه نعم المولى ونعم النصير، فأثابهم الله بنعمة منه ورضوان، ومن ثم جاء قوله: (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ) معطوفا بالفاء للترتيب والتعقيب، وفي البيان حذف بالجملة حيث حذف السبب وبقي المسبب إذ التقدير: فخرجوا فانقلبوا وهذا يدل على أنهم لم يمكثوا شيئا عند خروجهم لقتال العدو، ولم يكن منهم معاناة في القتال بدليل مجيء الفاء، وهذا مرد قوله: (لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) في قتال العدو.

١ – ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٧٥.

والباء في قوله: (بِنِعْمَةٍ) بمعنى الملابسة أو المصاحبة، فكأنه قيل: فانقلبوا متلبسين بنعمة أو مصاحبين لها[١]، فالنعمة والفضل صاحبتهم ورافقتهم عند انقلابهم ورجوعهم، والنعمة هنا العافية، والفضل التجارة، وقيل: النعمة منافع الدنيا والفضل ثواب الآخرة[٢]، والتعبير بالحركة في الجملة انقلبوا بالفعلية يصور الممثلة في الماضي يفيد تقلبهم فيها وحصولها فيهم وتحقق ذلك لهم حتى أغرقوا في النعم والفضل، ومجيء لفظ الجلالة الله دليل على كثرة النعم وحسنها، ودليل على فخامتها وجودتها، وأنها نعم وفضل جزيل لا يقدر عليه إلا الله، ولا أدل على ذلك من تنوع الأجر بين النعمة والفضل، وجملة لم (لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) جملة حالية تقرر رجوعهم غانمين من غير سوء، وجاءت بغير الواو لأجل أنه قد عُمد إلى الفعل الواقع في صدرها أي: في صدر جملة الحال فضم إلى الفعل الأول في إثبات[٣]، وهذا يهدف إلى أن هذه الحركة انقلبوا قد نتجت عن الحادث وصاحبته وصورته حين وقع، فالنعمة والفضل هيئة تصاحبهم في الدنيا والآخرة لما خرجوا في الجهاد، ونفي السوء عنهم توكيد لحالتهم عند انقلابهم بالنعمة والفضل بعدما صدر عنهم الخروج للجهاد، والتوكيد والمؤكد شيء واحد من أجل هذا طرحت الواو.

وتأتي حركة أخرى في التقلب المحمود حيث قال تعالى: **(قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. الشعراء:٥٠)** جاءت هذه الحركة نتيجة وردا من سحرة فرعون الذين امنوا بالله(ﷻ) حين توعدهم فرعون (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) فلم يلتفت من أمن بالله(ﷻ) واطمأن بجواره إلى هذه التهديدات بل إنهم استعملوا من الألفاظ والمعاني ما يشير إلى أن عظم ما أعده

١ – ينظر: التفسير الوسيط: ٢ / ٣٤٣.

٢ – ينظر: تفسير الرازي: ٩/ ٤٣٤.

٣ – ينظر: دلائل الإعجاز: ٢١٣.

فرعون من العذاب أصبح لا يضرهم ولا يؤذيهم، لأنهم صائرون إلى ربهم، ومن ثم جاء قوله: (قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) تعليلا لهذا التهديد والوعيد، وجاء فعل القول منفصلا عما قبله، لأنه يعطي السامع مساحة من الزمن يتساءل فيها ماذا كان رد السحرة الذين ساعدوا فرعون قبل إيمانهم على ادعاء الربوبية من فرعون؟ فيأتي قوله قالوا منفصلا عما قبله لشبه كمال الاتصال، وهذا يبين أنهم كذبوا دعوته في الربوبية، وبيان الحركة (مُنقَلِبُونَ) للإيمان بأنهم تركوا شهوة الدنيا وزينتها عندما وعدهم فرعون بأن لهم أجرا، فانقلبوا إلى الله(ﷻ) رغبة في ثوابه وطمعا في مغفرته.

وإيثار حركة منقلبون تتناسب مع سياقها، لأن فرعون لما توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف والصلب على جذع النخل حتى الموت ناسب ذلك المنقلب، لأن مصائب فرعون وتهديداته لا تضرهم وهم منقلبون إلى الله، هذا هو مقصدهم، ومن ثم جاء لا ضير عليهم بجوار رضا الله عنهم ومغفرتهم، وجاء التوكيد بإنَّ رغبة في تحقيق الخبر، ولحاجة المتكلم إلى توكيد كلامه، لأنهم هم سحرة فرعون الذين طال جرمهم معه، فلما رأوا الحق أرادوا أن يرغموا أنفسهم حتى لا يرجعوا إلى الكفر بعد شدة العذاب الذي سيلحق بهم، فأكدوا الخبر ونفوا الضرر؛ لثبات نفوسهم على الحق، وقدم الجر والمجرور (إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) للايناس بالله(ﷻ)، وهذا يعينهم على الصبر والثبات، والاستهانة من بطش فرعون وجبروته، وتقرير بأنهم أرادوا الوصول إلي الله(ﷻ) لا أحدٍ سواه، فتقديم الجار والمجرور يفيد الحصر والقصر.

المبحث الثاني: أثر المجاز في الحركة –مجيء المجاز مبينا للحركة–.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ..﴾ **الأعراف: ١٧١)** هذه الحركة من معجزات موسى(عليه السلام)، ولقد سجل القرآن هذه الحركة للجبل عندما عصى بنو اسرائيل موسى(عليه السلام) ولم يقبلوا ما في التوراة من أحكام فأمر الله(عز وجل) الجبل فاقتلع فوقهم كأنه غمامة، فأيقنوا أنه واقع عليهم إن لم يستجيبوا له.

ولقد بدأ الحديث عن هذا بقوله (وَإِذ) بالعطف على ما سبق، وإذ ظرف زمان يقتضي حذفا تقديره: واذكر، والمتأمل لآيات القرآن يجد أن هذا الظرف كثيرا ما يأتي ويكثر في استعماله أنه يأتي في سياق الحديث عن الأمر الغريب العجيب الفريد من نوعه الذي يقتضي عقلا وحسا حاضرا يشاهد ويتابع ما يحمله عليه من حدث واقع يحيل الذهن إليه ليشاهده، وما يرمي به من معنى حاضر مكتسب، مع الجمع بين الإحالة على الحدث السابق، والأمر الماثل المشاهد للمخاطب، ومن ذلك نتق الجبل، والمراد بنق الجبل زعزعته ورفعه واقتلاعه[١]، وإيثار حركة النتق هنا للجبل بدل الرفع، لأن السياق هنا سياق غلب عليه التهويل والفزع والخوف، والنتق يتناسب مع هذا النظم، كما أنه استعمل بجواره ألفاظا تدل على شدة تصوير هذا الفزع منها: كلمة الجبل دون دلالتها مثل الطور، فهو وإن من مسميات الجبل إلا أنه أقل منه في التكوين، فالجبل اسم لما طال وعظم من أوتاد الأرض[٢]، ومن ثم آثر النتق، وهو من فرائد القرآن على الرفع، لأنه يدل على جذب الشيء وزعزعته وقلعه من مكانه[٣]، وهذا أبر بسياق

١ – ينظر: لسان العرب: نتق.

٢ – ينظر: المصدر السابق نفسه: جبل.

٣ – ينظر: مقاييس اللغة: نتق.

الكلام، لأن المقام مقام تهديد وتهويل، والظرف المكاني فوقهم الذي حدث بفعل النتق تصوير بديع يصور انتزاع الجبل، واقتلاعه من مكانه، وجعله فوقهم يشملهم ويحيط بهم، وهذا تصوير مفزع للنفس، لأنها تتخيل صورة الجبل المنتق فوقهم، وهذا الحال يزيد المعنى ويصوره ويجسده في الخيال، وأما قوله: كأنه ظله إنما جيء به لأن النطق هنا من فرائد القرآن يحتاج إلى شيء يكشف غايته ويوضح هيئته من تصور انتزاع الجبل فوقهم كالظلة، وهذا لا تجده في كلمة رفع، ومن ثم أتى القرآن بهذه الصورة التي توحي بالإحاطة والشمول، وقرب الجبل منهم، وأنه استظلهم كالظلة فوقهم، حيث شبه الجبل حين رفعه الله– تعالى– فوق بني إسرائيل بالظلة، والوجه الارتفاع والتظليل في كل، وإنما استعمل الأداة كأن، لأنه يريد أن يقرب المشبه للمشبه به، وأن يؤكده له، ورفع الجبل فوقهم أمر تحتاج النفوس إلى تقريره وتوكيده في نفس السامع، فأتى بصورة كأنه ظله، لبيان ما لم تجري به العادة وهو رفع الجبل فوق رؤوسهم إلى ما جرت به العادة وهو الغمامة، أو المظلة لتقرير وتأكيد هذا الأمر[١]، ومعنى هذا أن مقدار التشبيه وحالته صفة معلومة للمخاطب، ولكن المراد هو تقرير وتأكيد المشبه في نفس السامع، وفيه نظر لأنه ينبغي أن يكون هذا من بيان إمكان المشبه لأن المشبه حال الجبل في ارتفاعه عليهم والمشبه به بحال الظلة في ارتفاعها[٢]، وذلك لأن المشبه رفع الجبل فوقهم أمر لم تعتد النفوس عليه، ولم تكن تعرفه قبل ذلك، فاعتمد القرآن على إبراز الحقيقة المراد إبرازها في النفوس من صورة الشيء مرئي في حياة الناس؛ ليكون كالدليل على إمكانه، فشبه حينئذ بشيء مسلم الوقوع به وهو الظلة، فالغرض إمكان وجود المشبه. والظن هنا في موضع

١ – ينظر: الإيضاح مع البغية: ٣ / ٤١٥.

٢ – ينظر: عروس الأفراح: ٢/ ٨٠.

اليقين، لأنهم اطلعوا على الجبل فوقهم، وحصلت لهم رؤيته، ولا أدل على ذلك من استعمال اسم الفاعل واقع الذي يدل على ثبات وقوع الجبل عليهم، وتقرير ذلك في نفوسهم إن هم عصوا أوامره وخالفوه، ومجيء الباء في قوله: (وَاقِعٌ بِهِمْ) تريك هول الموقف، وعظم التهديد الحاصل لهم، لأنها مع ما جاورها تفيد أن الجبل يتربص بهم وسينزل العقاب عليهم، ووجه الجمع بين فوقهم، وبين باء الملابسة أنهم كانوا مستقرين في الجبل، فهو إذا ارتفع ووقع ملابسا لهم ففتتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه وقيل: الباء بمعنى على[1].

وهكذا تبين قول الله(ﷻ): (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) أقوى وآكد وأبين من قولنا: رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة؛ لما في الأول من شدة الرهبة والفزع والخوف الماكر في نفوس هؤلاء، كما أن الصورة جاءت كاشفة لهذه الحركة معبرة عنها؛ ليتخيل السامع النتق، فيزداد تأثرهم برفع الجبل حقيقة بقدرة الله فوق رؤوسهم، ومن ثم أوضح التشبيه المعنى للسامع من إدراك الجبل وإحاطته وشموله لهؤلاء.

وتأتي حركة أخرى في سياق الحديث عن أهوال يوم القيامة، ولقد سجل القرآن للخلائق هذه الحركة حين يخرجون من قبورهم يوم الحشر فقال: (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. **القمر:٧**) فالحركة ماثلة في خروج الخلائق من قبورهم، ثم يأتي التشبيه كاشفا ومبينا لهذا الخروج في مشهد حافل من المعاني والألفاظ، كل جملة آخذة بحجز أختها، لتنقل لذهن السامع حدث خروج الموتى من قبورهم، وهم في هيئة من الفزع والخوف والانتشار والتدافع والتموج من غير تحديد ولا تعقل، وهذا لا تصل إليه من خلال التعبير بالحركة (يَخْرُجُونَ) وحدها إلا وهي آخذة بالصورة بعدها (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)،

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ٩/ ١٦٥.

ولقد وصفهم الله حال خروجهم من قبورهم (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ) بالكناية عن الخضوع والاستسلام والتذلل، لأن "ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما"[١]، واللفظ مجاز مرسل حيث أطلق الجزء وأراد الكل لعلاقة الجزئية، ومجيء الحركة في ثوب المضارع ليصور للسامع هيئة الخلائق يوم خروجهم، وكأنه مشهد ماثل ومشاهد، لأن المضارع له القدرة على تصوير الحدث، وإقلاعه من زمن بعيد ماثلا شاخصا أمام المخاطب، كما أن المضارع يصور هيئة الخلائق وهم يخرجون من باطن الأرض، وانتشارهم على ظهرها في جو من الهول والخوف الساحق، ومجيء الحركة بعد الاستسلام والذل الماثل في خشعا يصور مدى الحيرة والاضطراب في انتشارهم، وتموجهم وتدافعهم في صورة حية مجسدة للفزع من أهوال تترقب، ولفظ الأجداث يراد به القبور، وله ذكر في موضعين آخرين كل واحد منهما يشير إلى البعث والنشور، ومن ثم فلفظ الأجداث يتناسب مع أهوال يوم القيامة، كما أنه يتناسب ذكره ما حال المنكرين للبعث والنشور، فلا تراه يوجد إلا وقد ذكر قبله إما منكر أو مكذب، وهذه الجموع الخارجة من الأجداث لم تكن الحركة وحدها تصفها ولا تصل إلى المقدار الحاصل فيها وحدها إلا وهي مقرونة بهذا التشبيه الماكن في قوله: (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ) حيث شبه الناس حين خروجهم من باطن الأرض وانتشارهم عليها، بهيئة الجراد في كونه منتشرا، ووجه الشبه الكثرة والتدافع والتموج في كل، وانظر في دقة القرآن واختياره للفظ الجراد وتقييده بلفظ منتشر حتى يصور لك حركة الخلائق، وهم في حالة من الفزع والاضطراب بعد الخروج، فلم يكتف بالجراد بل وصفه بكونه منتشرا بالاسم لتدل هذه الصياغة على الثبوت والدوام، فالتشبيه أضفى على الحركة يخرجون سرعة الانتشار مع الحيرة والاضطراب دون هدف

١ – تفسير الزمخشري: ٤/ ٤٣٠.

منهم، فهم يسيرون تلبية لدعوة الداعي المبهم في قوله: (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ) في جموع حاشدة لا تصل إليها إلا بهذا الوصف الدقيق الماثل في التشبيه المقيد مع أداته (كأن)، وذلك لتأكيد الكلام وتثبيته، فالناس مع كثرتهم، وتموجهم لهول الموقف الذي لا تعرفه النفوس ولا تصل إليه بالحركة إلا وهي مكرونة بالتشبيه.

وتأتي حركة أخرى تشبه التي مضت حيث قال الله تعالى: (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ. **المعارج: ٤٣**) فالتشبيه يصور حركة المشركين وهم يخرجون من الأجداث على هيئة مسرعة، حيث شبه إسراع المشركين من باطن الأرض يوم الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى صنم لزيارته، والوجه الانتشار والسرعة، وبراعة التشبيه تكمن في أن الله صور لهم ما تألفه قلوبهم وما عرفته، لأنهم كانوا أشد استباقا إلى أصنامهم، كما أنهم حين يستبقون لم يكن لهم هدف ولا وجهة، فالله(ﷻ) صور إسراعهم في الآخرة تهكما واستهجانا لحالهم، وجاهليتهم التي اعتادوها من الإسراع إلى ما لا يملك نفعا ولا ضرا، تعريضا بثقافة عقولهم، وتسجيلا عليهم بالجهل المشين حين أسرعوا إلى عبادة من لا يستحق العبادة[1]، فالحركة وحدها يخرجون لا تستطيع أن تفي بالغرض إلا والصورة معها في نظم جامع وحافل من المعاني والصور تشير إلى أن هذه الحالة التي هي عليها عند المحشر جزاء حالتهم التي كانوا عليها، وإثبات الحال في قوله: (سِرَاعًا) للتأكيد على شدة السرعة في البعث والنشر هنا، ولم تثبت في الآية السابقة عليها، لأن المشبه به قائم مقامها ودل عليها، فالجراد أشد إسراعا فالصورة كشفت البيان الماثل في الحركة وأوضحته في النفس.

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٨٣، وينظر تفسير حدائق الروح والريحان: ٣٠ / ٢٣٨.

وأما الحركة في قوله تعالى: (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.. **الأحزاب: ١٩**) جاءت هذه الحركة بيانا لحال المنافقين وصفهم إذا حضر القتال، ولقد سجل لهم القرآن هذه الحركة (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ) ثم جاء بالتشبيه كاشفا لها وموضحا فقال: (كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)، وقد عبر القرآن عن سبب هذه الحركة ببيان آثر فيه الشرط بإذا (فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ،) نظرا لأن الشرط يكون فيها مقطوعا بوقوعه، وبناء الحركة عليها فيه نكتة لطيفة إشارة إلى أن ما بعدها لا يحتمل إلا صدقا في حتمية وقوعه، وهي الحركة الماثلة في أعينهم التي تنبئ عن صدق مشاعرهم، وتخبر بأحوالهم إذا جاء الخوف، والتعبير بالمجيء ينذر بشدة المقام، وما ينتج عنه من قوة وقت الإيجاد، كما أن التعبير بالمجيء يتناسب مع معنى الوضوح والظهور الماكن في أعينهم، وأنها تضطرب في أجفانها كحركة ظاهرة من سرعة خفقانها، وانظر إلى صياغة الخوف والذي انبعث منه إتيان ومجي، حيث شبه الخوف بكائن مخيف يثير الرعب ويبعث الخوف في نفوس المخاطبين، مبالغة في الخوف المنبعث من تلك الوجوه يوم القيامة على سبيل الاستعارة المكنية، واللفظ كناية عن القتال.

والتعبير بالرؤية هنا رؤية بصرية محققة تحدث أثرا كبيرا في الاقتناع بالحدث المرئي المشاهد لأنها تدركها الأبصار، ومجيء المضارع ينظرون لتجدد النظر لهم مرة بعد مرة، وتوجيه النظر له في التعبير إليك حتى يثير القلق والرعب الماكن في نفوسهم، وينقله إليه تعريضا وسخرية منه وضعف موقفه تجاه هذا الجمع المتربص به، وكأنهم يشيرون من طرف خفي إلى العداء الماكن في قلوبهم منه، وتوجيه هذا العداء إليه، وتربصهم به، والفرار منه في البأس، والطمع في الرخاء، كما أن ملاحظة الحركة في عيونهم، ورصدها في قوله: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ) وتصويرها بالفعل المضارع يضفي على الحركة سرعتها في العين،

واضطراب أجفانها من سرعة خفقانها إلى الجهات، واللفظ كناية عن الفزع من الذهاب إلى القتال وأعباء الجهاد، وإنما سلط القرآن الضوء على حركة العين لتكون هذه الحركة فاضحة لهم، وكاشفة عما أضمروه في النفس من أنهم صاروا يخالفون أمره، ويفرون من القتال معه، "والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء"[1].

ودوران أعينهم في مآقيهم يمينا وشمالا لم يكن ليصل السامع إلى هيئته، وما يدور في خلجاتهم إلا من خلال صورة المشبه به (كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)، وهذا اختيار دقيق يتناسب مع حالتهم عند الشروع في القتال، حيث شبههم القرآن عند نزول الخوف ورعبهم منه، ودوران أعينهم في نظرات شاردة تائهة، بدوران عين الذي تغشاه سكرات الموت، وهذا التشبيه أبلغ في وصف الخائف، وهو من فرائد القرآن الذي عرف واقترن بهيئة المنافقين، والناظر في سورة محمد يجد أن الله أثبت لهم هيئة المغشي عليه من سكرات الموت دون حركة العينين فقال: (رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.. محمد: ٢٠) لأن المقام هنا أقل حدة مما سبق، فالسابق مقامه نزول الخوف، والشروع في القتال، فناسبه اضطراب العينين، وفي هذه الآية لم يكن خوفا، ولا شروعا في قتال، وإنما النظم والمناسبة تدور على نزول القتال وفرضه، وهذا يصور أحوال المنافقين من الجبن في البأس والغزو، وأحوالهم في الطمع عند الرخاء.

وانظر إلى آثار الحركة وصورة المشبه به في الآية (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ) واتصاله بالكاف، لتكمن بلاغة الصورة في تأكيد المعنى وتقريره في ذهن المتلقي الذي لم يكن ليصل إليه لولا اقتران الحركة بالتشبيه، والذي أحدث أثرا كبيرا في

١ – الجامع لأحكام القرآن: ٧٥/٢.

النفس بصورة المشبه به المحسوس، ليكون له دور بارز في رسم الصورة وتحديد دلالتها، مما يجعل النفس تحيا في هذا المشهد المرسوم على وجوه المنافقين وكأنها تشاهده، وقد جاء المشبه به على عدة أشياء منها الفعل المضارع لما لم يسم فاعله (يُغْشَى) ليبرز هذا المعنى الحاصل لهم، وكأنه مشاهد يتجدد مرة بعد مرة في عيونهم، ليبرز اضطراب حركة أعينهم وسرعتها، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله فيه التفخيم والتهويل، كما أن القرآن لو اقتصر على وصف هؤلاء المنافقين بقوله: (كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) كافيا في المقصود لكن أراد الزيادة على المقدار الذي قصد من المبالغة فأوغل بقوله: (مِنَ الْمَوْتِ) إذ حالة المغشي عليه من الموت أشد وأنكى من حالة المغشي عليه من غير الموت، ومما لا شك فيه أن حالة المنافق من الجبن والفزع عند شروع القتال بهذه المثابة، كما أنه لو جاء بالخوف بدلا من الموت لكان بليغا، غير أن ما جاء عليه التنزيل أبلغ[١] وآكد، لأنه يصف أحوالهم عند نزول الخوف التي لا تشبهه إلا عين من نزلت به سكرات الموت، مبالغة في وصفهم بالجبن والفزع، وهذا ما يعرف بالتنديد[٢]، وعليه فقد ساعدت الصورة وكشفت المراد من الحركة في هذا النظم عن طبيعة المنافقين في الشعور بالخوف الماكن في عيونهم عند الشروع في القتال، وتأثير ذلك على المحيطين بهم.

وجاءت الحركة في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا.. **النمل: ١٠**) تأتي هذه الحركة في سياق الحديث عن سيدنا موسى(عليه السلام) عندما ألقى عصاه أمام فرعون وسحرته، فإذا هي تهتز كأنها جان، وأول ما نلاحظه في

١ – ينظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: ص ٥٧١، وإعراب القرآن: ٧/ ٦٢٠.

٢ – وهو أن يأتي المتكلم بنادرة حلوة أو مجنة مستطرفة وهو يقع في الجد والهزل: تحرير التحبير ٥٧١.

سياق الحركة قول الله تعالى: (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ) عاطفة على محذوف تقديره: فألقاها[1]، وهذا الحذف مع اقتران الفاء وحرف الشرط (لما) يفيد سرعة تحول العصا التي كانت في يد موسى(عليه السلام) إلى ما كانت عليه من أنها كالجان، وهذا له أثره في النفس من الفزع والخوف والاضطراب، مع الرؤية البصرية المحققة في الفعل رأى، والذي أضفى على هذا الجماد المذكور في العصا فحوله إلى حية تسعى وتتحرك في رؤية بصرية، وقيل: الفاء فصيحية[2] أفصحت عن مكنون هذه العصا وتحويلها إلى حية تسعى وتتحرك أمام موسى، فدب الخوف في نفسه، وولى مدبرا، والانتقال من الماضي في قوله: (رَآهَا) إلى المضارع (تَهْتَزُّ) ينتقل من الإخبار والحكاية في الماضي إلى صورة حية في المضارع، ومشاهدة دب فيها روح الحياة، وإيثار الفعل تهتز دون دلالة أخرى يريك سرعة الاضطراب، والحالة الناجمة عن هذه العصا حين تحولت، وهذه الحركة وهي إن أفادت سرعة التحرك والتحول من كونها عصا حية تتحرك، فلم تكن لتفيد هذا المعنى في نظمه إلا وهي مقرونة بالصورة التي تكشف المراد منها وهي قوله: (كَأَنَّهَا جَانٌّ) حيث شبهت العصا في تحركها وسرعتها عندما ألقاها، بالجان المخلوق من النار، ووجه الشبه سرعة الحركة والخفة في كل، وعليه فالمشبه به من الأمور المخيلة في النفس، وهو ما لا يدرك بالحواس بل لا تجد نفسا إلا وهي تخاف منه وتشمئز من هذه الصورة، وهذا ما حدث لموسى(عليه السلام) من أنه دب الخوف في نفسه عند الحديث عن تشبيه العصا بالجان في سورة القصص والنمل، لأنه قد استقر في نفوس البشر من سرعة وتحرك واضطراب

١ – تفسير حدائق الروح والريحان: ٢١ / ٧٥.

٢ – ينظر: التفسير الوسيط: ١٠/ ٤٠٣.

الجان وخطورته عليهم، فكان المشبه به الجان أوضح في بيان المشبه في هذا النظم من المبالغة في السرعة ما ليس في الحركة فقط في قوله: (تهتز).

أو يكون المشبه به من الأمور التي ألحقت فيها المعاني إلى المحسوس، فيكون المراد بالجان وهم مما لا تدركه الحواس إلا أنه استقر في نفوس الناس الشناعة والبشاعة والخوف والرهبة والسرعة المصاحبة للاضطراب، من هنا نقلوا الصورة إلى غير صورة، وألحقوا المعاني بالأمور المدركة بالحواس، وهذا من ألطف التشبيهات وأرقها وأدخلها في البلاغة، لأنه إلحاق المعاني بالأمور المحسوسة المدركة في الظهور والجلاء، فيصير في الحقيقة كأنه تشبيه محسوس بمحسوس، وهذا في نهاية المبالغة[١]، أو يكون المراد بالمشبه به أنها كانت في شخص الثعبان، وسرعة حركة الجان، ودليل ذلك أنه(ﷻ) شبهها بالجان ولم يقل إنه في نفسه جان، فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار[٢]، وعليه فقد ارتبطت الحركة تهتز بالجان في نظم القرآن مع عصا موسى، وجاءت على وزن الافتعال، لبيان شدة الحركة وسرعتها والاضطراب الذي لا يستقر في نفسها، أما ذكر الحية دون لفظ الجان لا تجد معه الاهتزاز، ولا تكاد تجد لفظ الجان إلا وهو مقرونا بالاهتزاز وبإخافة موسى(عليه السلام) وتوليته مدبرا ولم يعقب، وذلك من شدة الخوف الذي أحدثه هذا الجان، لأنه ليس كالحية أو الثعبان في الخوف، ففي جانب الحية قال الله(ﷻ): (فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى. طه٢٠)، وفي جانب الثعبان قال(ﷻ): (فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ. الشعراء: ٣٢)، فلم يسيطر الخوف عليه في الحية والثعبان، وعليه فإن الحركة لا تصل إلى معناها إلا وقد اتصل التشبيه بها، لأنها لو

١ – ينظر: الطراز للعلوي: ١/ ٣٦٠.

٢ – ينظر: تفسير الرازي: ٢٤/ ٥٩٤.

أفردت لم يكن لها أثر في النفس، ولم تحدث ما أحدثه التشبيه معها من الخوف الماكن لموسى(عليه السلام)، والحركة والسرعة مع الخفة.

وأما قوله(عز وجل): (تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ.**القمر: ٢٠**) فسياقه أنهم لما كذبوا أرسل الله عليهم ريحا عاصفة شديدة البرودة استمرت عليهم حتى دمرتهم تدميرا، يصف القرآن هذا الهلاك بالحركة الماثلة في قوله: (تَنزِعُ) والنزع الإزالة عن الشيء بعنف حتى ينفصل عما كان يتصل به[1]، وهذا بيان للهلاك الذي سلطه الله(عز وجل) عليهم، وإسناد الحركة إلى الريح من قبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية، وأفاد الإسناد المبالغة فيما نزل بالقوم، وصور ما حل بهم من هلاك، وتكمن بلاغته في التهويل والتفظيع من شأن هذا اليوم الذي أجرى فيه الريح وشدتها حتى أقلعتهم وأهلكتهم، كأنها هي الفاعلة الجاهدة بنفسها، وهذا تخييل مثير يصور للسامع أنها لم تبق منهم أحدا على وجه الأرض، وهذا مفاد الجمع في التعبير بـ(الناس)، لأن الذين صدقوه عدد قليل، فما أمن به إلا قليل[2]، وإيثار حركة النزع دون دلالتها أو لفظ آخر غيرها لا يصل إلى معناها المراد في سياقه، لأن النزع يكون عن شدة فوق شدة، وما فيها من المعاناة والقوة التي تتناسب مع اليوم الواحد المستمر عليهم من قوة الريح الصرصري في قوله: (رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ) كما أنها شديدة الصلة بينها وبين التشبيه في قوله: (كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) فهذا التطابق الماثل بين هلاك القوم المطرحين على الأرض مقطعة رؤوسهم في صورة المشبه، وبين كون النخيل منقلعا من غرسه مقطعا من رأسه في صورة المشبه به، وما أثبته اسم الفاعل في قوله: (مُّنقَعِرٍ) أي: ثبات هذا الوصف لهم، فهم قد تحولوا إلى صورة النخل

١ – لسان العرب: نزع.

٢ – التحرير والتنوير: ٢٧ / ١٩٣.

المنقعر، وتحقق فيهم هذا الوصف، ومن ثم فإن الحركة وإن كانت تدل على الشدة والمبالغة في تجاوز الحد إلا أن الصورة أضفت معنى جديدا عليها، وكشفت عن حقيقة المراد، لأنه لما كان من شأن الريح القوية أن تقتلع النخيل من جذوره مع ضخامة النخل، وقوة جذوره الممتدة في الأرض عبر الزمن، شبه هؤلاء القوم بأعجازها، وثمة فرق بين هذه الآية (تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) وبين قوله: (فَتَرَىٰ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. الحاقة: ٧) فالآية الأولى أشد وأنكل في الهلاك والتفظيع، وهذا يتناسب مع حركة تنزع، واليوم الواحد المستمر في نحسه، والجزاء الماثل في منقعر، وهذا يشير إلى أن الريح قضت عليهم في يوم، ثم هي من شدتها أخذت تنثرهم وتحركهم حتى تركتهم في السبع كأعجاز النخل الخاوية، وهذه كلها أمور مشاهدة تؤثر في النفس، إذ إن هذه الأشياء التي يسوقها الله بالخير كانت هي سببا في نهاية أولئك المتجبرين المكذبين برسول الله(ﷺ)، فالحركة تنزع مع صورة التشبيه التمثيلي من حيث تمثيل هؤلاء الكافرين بالنخل المنقعر حين هبت الريح عليهم فأقلعتهم من أماكنهم، فيه من التهويل والتفظيع ما يثير العاطفة، ويحرك المشاعر من هذا التشبيه البديع المرهب، وهذا لا تجده إلا والحركة جنبا إلى جنب في نظم واحد مع التشبيه.

وأما قوله: (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا.. **لقمان:** ٧) لقد سجل القرآن الكريم هذه الحركة للذي تولى وأعرض عن آيات الله فقال: (وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا) في سياق الآيات بعد بيان حال السعداء الذين اهتدوا بكتاب الله(ﷻ) وانتفعوا بما فيه، عطف عليهم فريقا آخر هو بيان حال الأشقياء الذين أعرضوا عنه، وأقبلوا على لهو الحديث ليضلوا أنفسهم وغيرهم عن طريق الله، فيبتعدوا عن الهداية والرشاد، فشأنهم شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام بل يجعل نفسه غافلة عن الاستماع إلى الحق المبين، حيث آثر القرآن هذه الحركة

(وَلَّى مُسْتَكْبِرًا) في وسط من الأساليب البلاغية التي تؤكد الحركة الماثلة له منها: إيثار أداة الشرط إذا التي تفيد تحقق الوقوع بحصول الشيء، وهذا له أثره في البيان لأن الإتيان بها يؤكد حصول القراءة والتلاوة عليهم، والتعبير بالفعل المضارع (تُتْلَى) والذي يدل على قراءة آيات الله في صورة متجددة عليهم، والإتيان به في صورة الفعل الذي لم يسم فاعله؛ للتفخيم من شأن التلاوة وحصولها من كل أحد عليهم، ومع ذلك فهم لا يتدبرون لآيات الله، ولا يمعنون النظر في معناها والمراد منها، كما أنه يفيد التركيز على الآيات التي تتلى عليه وتكرارها دون الانتباه إليها، وإمعان الفكر فيها.

هذا بخلاف المعلوم لأنه يسلط الضوء على الفاعل، فلعله يتوهم أنهم لم يتدبروا الآيات لأجله، وإنما أفاد أنهم على مر الزمان لن يسمعوا آيات الله، ولن يتفكروا فيها، كما أنه لو قيل: (تليت) بالماضي لأفاد أن التلاوة حصلت وانقطع زمنها عنهم، وإنما كلما تليت الآيات حدث التولي والاستكبار، وهذا أكثر جرما في المعنى، وأدل على أحوالهم في أنهم لن ينتفعوا بالآيات، ومن ثم جُمعت الآيات وأضيفت إلى الله(ﷻ)؛ لبيان كفرهم المحض وتفظيع ما صنعوه، وإيثار التولي بالمضي لتحقق صورة الفعل عند وقوع الحدث، وثباته فيهم، كأنه يخبر أنه بمجرد التلاوة حدث التولي والاستكبار، وإيثار الحال (مُسْتَكْبِرًا) لبيان الإعراض والاستكبار، ليس هو إعراض تفريط في الخير[1]، وجاء قوله: (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا) في ثوب التشبيه الذي كشف المراد من الحركة، وأبان حال الذي تليت عليه آيات الله، وجاء بـ(كأن) لشدة قربه من حال من لم يسمع، ومن في أذنيه وقر، وذلك لبيان أنه لا فائدة فيه من التلاوة عليه، فحاله كحال من لم تتل عليه، فكلاهما سواء، حيث شبه حال من أعرض عن آيات الله

١ – التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٤.

وولى مدبرا مستكبرا عنها دون فائدة، بحال من لم يسمع، ووجه الشبه عدم التأثر في كل، ثم جاء تشبيه آخر يبين سبب تولي هؤلاء وعدم سماعهم للقرآن، بحال من في أذنيه صمم، وهذا هو بعينه التشبيه بمن لم يسمع، ولكن الثاني أبلغ وآكد فيما سيق له من حيث كان من لا يصح منه السمع وإن أراد ذلك، أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة من الذي يصح منه السمع إلا أنه لا يسمع إما اتفاقا وإما قصدا إلى أنه لا يسمع[1]، وقد فصل بين قوله تعالى: (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا) لما بينهما من الاتحاد والتلاحم ما يمنع العطف بالواو، لأن بين هذه الجملة والسابق عليها من قوة اتصال وشدة ترابط، وذلك لأن الجملة الثانية منزلة من الأولى منزلة التوكيد المعنوي، بحيث تختلف مفهوم الجملتين، وتكون الثانية متضمنة لمعنى جديد مؤكد ومقرر لمعنى الأولى، وهذا من قبيل كمال الاتصال، وعليه فقد أبان التشبيه، وكشف الستار عن معنى الحركة، إذ قرر أن إعراضه عن آيات الله، وعدم الإفادة منها مستكبرا كالذي لم يسمع عنها كأن به صمما، وهذا يقرر عدم الانتفاع بأبلغ نافع مع استمرار حديث التلاوة، فالتشبيه يقرر توبيخ هذا المعرض وذمه لإعراضه عن القرآن، ومن ثم جاء قوله: (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) جزاء له على جرمه، وتهكما لحاله، فالتعبير بالبشارة في موضع السوء يقرر أنه لا بشارة له إلا العذاب الأليم، تهكما وسخرية من حاله وعقابا له على إعراضه وتوليه عن آيات الله.

وأما قوله(ﷻ): (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. **يس: ٣٩**) آية من آيات الله، ولقد سجل القرآن هذه الحركة للقمر وما فيها من الضآلة والضعف، "فهذا القمر بهجة السماء، وملك الليل لا يزال ينتقل في منازله، حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة، وهذا الضوء الساطع ....دقيقا نحيلا محدوبا

١ – ينظر دلائل الاعجاز: ص: ٢٢٩، ومن بلاغة القرآن الكريم ص: ١٣٧.

لا تكاد العين تنتبه إليه"[١]، وأول ما نلاحظه هي رحلة القمر الطويلة التي تبدأ من مسيرته حتى تنتهي باختفاء نوره، ويعود كالعرجون القديم، في سياق مليء بالأساليب البلاغية حيث جاء بالواو العاطفة التي تعطف هذه الآية الكونية على الآيات السابقة، وقدم المفعول القمر على الفاعل قدرناه؛ ليطابق ما تقدم من نظم الكلام؛ ليكون الجميع على نسق واحد في النظم، لأن الجمل كلها بالأسماء المتناسبة[٢]، وتقدير القمر منازل عبر حركته في رحلته الطويلة التي بدأها بالهلال، ثم مضى فيها حتى عاد في ضآلة أمره واختفائه، لا يصل إلى معناه والمراد منه إلا من خلال هذه الصورة التي كشفت عن أمره فقال: (كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) بمعنى القمر يصير شكله حتى يعود للناظرين كالعرجون، وهو العود الذي تخرجه النخلة، فيكون الثمر في منتهاه[٣].

حيث شبه القمر في نهاية رحلته بالعرجون القديم، ووجه الشبه منتزع من عدة أمور، هي الدقة والتقوس واللون، وثمة معنى جامع بين حركة القمر، وتقديره منازل، وبين العرجون أن القمر عند نهايته وآخر مطافه لا تتعلق به الأبصار، ولا تكون له فضل في رؤية، كذلك العرجون عند نهاية مطافه وحصاد ثمره، لا تكون له فضل رؤية ولا يتعلق به أحد، ومن ثم جاء التفصيل في المشبه به بالقديم، لأنه لا يصير إلا في العرجون القديم حتى يتحقق الوجه بين الطرفين، وبهذا قد حقق التشبيه معنى الحركة حتى إن كل معنى فيه قد تضامن مع الحركة، لأداء وجه الشبه بين الطرفين، وصارت كل جملة كأنها آخذة بحجز

١ – من بلاغة القرآن ص١٤٩.

٢ – ينظر الطراز لأسرار البلاغة: ٢/ ٣٨، وينظر من بلاغة القرآن: ٩٢، وينظر علم المعاني: عبد العزيز عتيق ١٤٣.

٣ – التحرير والتنوير: ٢٣: ٢٢ .

الأخرى بحيث لو حذفت شيئا منها لأخل ذلك الحذف المراد من البيان، كما أن المشبه به فيه اعوجاج لا تكاد تجده في غيره يشبه تقوس الهلال.

وفي إيثار هذا المشبه به العرجون القديم، لبيان حركة المشبه تقدير منازل القمر، معنى بديع لطيف لا تصل إليه إلا من خلال الصورة، وهي أن "القمر في لياليه الأولى هلال، وفي لياليه الأخيرة هلال، ولكنه في لياليه الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وقوة، ... وفي لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم، ووجوه، ويكون فيه شحوب، وذبول ذبول العرجون القديم"[١] أي: أنه يماثل حالة ابتدائه، وحالة ختامه، والتعبير بقوله: (حَتَّى عَادَ) يبين صيرورة هذا القمر في المنازل، وتحركه فيها، فكل منزلة تختلف في الحركة عن سابقها، والتي تليها حتى ينتهي نوره ويعود من جديد: وقيل: حتى بمعنى إلى أي: إلى عود مثل عود العرجون القديم[٢]، وقد تكون بمعنى الابتدائية، فليست حرف جر، وعليه فإن الغاية لا تفارقها، وهي تستلزم ابتداء شيء محذوف، والتقدير: فابتدأ ضوؤه وأخذ في الازدياد ليلة قليلة ثم أخذ في التناقص حتى عاد أي: صار كالعرجون القديم[٣].

فحتى وكأنها تشير إلى رحلته الطويلة، وبيان حركته عبر الليالي، حتى نهاية نوره وموته، وبعثه من جديد، وقد اتضح من خلال التشبيه منازل القمر، وتحركه في كل ليلة، في صورة محسوسة مرئية، تؤثر في نفس المتلقي أقوى تأثير، وذلك لما بين المشبه والمشبه به من الانسجام الظاهر، الذي يصل به المتلقي إلى الفكرة في جلاء تام وواضح، وهذا الفرق بين إثبات التشبيه أي: تقدير منازل القمر حتى يعود كالعرجون، وبين الاقتصار على الحركة وحدها دون الصورة.

---

١ – تفسير في ظلال القرآن: ٢٣/ ٢٥.

٢ – تفسير حدائق الروح والريحان: ٢٤/ ٥٤.

٣ – التحرير والتنوير: ٢٣/ ٢٢.

وتأتي حركة أخرى لا يصل إليها المتلقي إلا من خلال هذه الصورة التشبيهية حيث يقول الله(ﷻ): (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ..**الأنبياء:١٠٤**) وطي السماء يوم القيامة لا تصل النفس إلى مخيلته، فلا تعرف هيئة الطي إلا من خلال هذا التشبيه الدال على قدرة الله(ﷻ)، حيث كشف التشبيه عن حركة السماء وتقريبها للسامع، إذ هي من الأمور الغيبية التي لا يراها الإنسان، ولا يستطيع عقله الوصول إلى معنى طي السماء، ومن ثم قربه إليه بصورة محسوسة، تشبه طي السجل للكتاب، حيث شبه طي السماء، بهيئة طي السجل أو الصحيفة على ما كتب فيها، والوجه اللف في كل، هذه الحركة تطوي عالما عاش فيه الإنسان وعرف معالمه، وتفصح عن عالم جديد يظهر قدرة الله (ﷻ) على خلقه وإيجاده، ولا أدل على ذلك من الإتيان بهذه الصورة البرهانية التي تدل على إيجاده وخلقه من جديد، حيث يقول(ﷻ): (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ)، فمن له القدرة على إيجاد الخلق أول مرة، فله القدرة على إعادته ونشأته من جديد، حيث شبه إعادة الخلق بابتدائه، ووجه الشبه الإحاطة والقدرة في كل، وقياس أمر البعث والنشأة مرة أخرى على بدء الخلق دليل على منكر البعث الذين ينكرون بعثهم بعد موتهم، وهم أنفسهم قد اعترفوا بأن الله خالقهم حيث يقول الله(ﷻ): (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ. الزخرف: ٨٧)، فهذا دليل على أن جعل لهم خلقا جديدا بعد موتهم، لكنهم لم يؤمنوا به، وهذا دليل على كبتهم وإثبات الحجة عليهم، كما أن استعمال الطباق بين الابتداء والإعادة، يبرز مدى قدرة الخالق(ﷻ) وهيمنته وسلطانه القاهر، فهو الذي يستطيع أن يعيد الخلق كما أنشأه أول مرة، فمن ذا الذي يدعي قدرة ذلك، إنها أمور ينفرد بها القادر(ﷻ) كما أنه دليل على طي السماء، وأن لا أحد يستطيع ذلك، وإنما ذكر الطي لعلم الإنسان به، وإن كان الطي غير الطي المعروف، وإنما قربه في مخيلة المتلقي، وأتى له بصورة معروفة، ليستقر

المعنى في ذهنه، ومن ثم آثر طي السجل للكتب، فكما أن الأمر سهل وميسور، فكذلك طي السماء يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات مطويات بيمينه.

وتأتي حركة أخرى تكشف الصورة فيها عن قدرة الله، وعظم جودته في خلق الجبال، حيث يقول الله(ﷻ): (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ..**النمل:** ٨٨) إن صورة الكون البديع لا يصل إلى تمام معرفته وآياته من كان منها مثل الإنسان مهما أوتي من قوة، ولا أدل على ذلك من صنع الجبال التي يشاهدها ويحسبها جامدة ثابتة في مكانها، وهي تتحرك بحركة سريعة، آثر فيها القرآن التعبير بالمرور دون التحرك، وذلك لما في دلالة المرور على حركة أسرع، كما أنها تتناسب مع انتقالها من مكان لآخر في فلك محدد تمر فيه لا يعلمه إلا صانع الكون، أما التحرك فلا يتناسب مع فلكها المحدد، ومن ثم آثر في الصورة التي تكشف عن مكنونها تكرار اللفظ بعينه، ليشير إلى معنى لطيف أن الجبال الراسيات الثقال الثابتة في أعين الناس، تسير في خفة السحاب وسرعته وتناثره، وهذه الحركة تمر لا يصل المتلقي إلى معناها المعهود من حيث السرعة والخفة إلا وهي مقرونة بالتشبيه، حيث شبه(ﷻ) سرعة الجبال وتحركها ومرورها، بسرعة السحاب ومروره، وهاهنا معنى بديع هو أن الله(ﷻ) آثر التشبيه المؤكد حيث حذف الأداة والوجه، ثم أعاد عليك اللفظة بعينها (مَرَّ)، ولم يكتف بقولك: تمر كالسحاب؛ ليؤكد أن المراد من البيان الحركة السريعة والخفة لا معنى العموم من السحاب، وحذف الأداة لشدة الشبه بين مرور الجبال والسحاب، وحركة السحاب دائمة لا تتوقف كذلك الجبال، ولا أدل على ذلك من استعمال المضارع **(تَمُرُّ)** مع الجبال، والذي يصور تجدد الحركة في الكون أمام الناس وهم يحسبونها ثابتة جامدة، كما أن استعمال الماضي مر مع السحاب، لأن دلالة مرور السحاب أمام الناظرين ثابتة محققة فناسبها الماضي، وقياس الشيء الغير معهود والغير معروف عند الناس على الشيء الثابت المحقق

أمامهم أولى وآكد في الإثبات، وفي إيثار الحسبان والجمود ما يؤكد رسوخ الجبال، وثباتها في نظر الرائي، لأن الحسبان هنا بمعنى تيقنه في ثباتها، واسم الفاعل جامدة على إثبات صفة الجمود للجبال، ثم يأتي نظم يبرهن على إعجاز الله(ﷻ) في كون هذه الجبال التي تيقن جمودها، تتحرك في حركة تشبه حركة السحاب، وهذه الحركة تحتاج إلى بيان توضيح يكشف عن هذا الشيء الراسخ في ذهن الإنسان، حتى يبرهن تحركه ومروره، ومن ثم آثر مرور السحاب، وتحرك السحاب يراه الإنسان ويبصره لكن لا يعرف سرعته ولا مقداره، والذي يتبادر في ذهنه من حيث الحركة، سرعة السحاب وخفته، وأن هذه الحركة وإن كنا نشاهدها لكن لا نعرف شيئا عنها، فكذلك الجبال يسيرها الذي صنعها، ولا نعرف شيئا عنها وإن كنا نحسبها ثابتة، وهذا من إحكام الله(ﷻ) لكنه كذلك قاس على حركتها معهودا، والخطاب في قوله(ﷻ): (وَتَرَى الْجِبَالَ) للنبي(ﷺ) تعليما له لمعنى يدرك هو كنه، ولذلك خص الخطاب به(ﷺ) وأطلعه الله(ﷻ) على هذا السر العجيب في نظام الأرض، كما أطلع إبراهيم(عليه السلام) على كيفية إحياء الموتى، وجعل هذا الخطاب ادخارا لعلماء أمته الذين يؤتون في وقت ظهور هذه الحقيقة([1])، وأرى أن الخطاب في (وَتَرَى الْجِبَالَ) للنبي(ﷺ) وغيره من غير تعيين، وذلك لأن الله أتى بقوله: (ﷻ) تحسبها جامدة وهذا يرجع أن رؤية الناظر إليها يراها ثابتة شامخة في مكانها، وإن كانت تجري بأمر الله وتمر مر السحاب، وكذلك ترجح القول بأن مرورها في هذه الآية في الدنيا لا قبل يوم القيامة، ولا فيه من أهوال، وذلك لأن الله قال عنها في يوم القيامة (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ .القارعة:٥)، وهذا ليس المراد من تشبيه مرورها بالسحاب، كذلك التذييل في الآية (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) والذي يبرهن

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٢٠/ ٤٩.

على بيان إحكام الله عز وجل لصنعه وخلقه، وهذا يستدعي التأمل والنظر، ومعاودة الفكر في ملكوت الله، وهذا لا يكون إلا في دنيا الناس لا في يوم تشخص فيه الأبصار، وجعل الشيخ ابن عاشور هذه الآية معترضة بين المجمل وبيانه من قوله(ﷻ): (فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ) إلى قوله: (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا) وذلك دليل على صنع الله في أثناء الإنذار والوعيد إدماجا وجمعا بين استدعاء النظر، وبين الزواجر والنذور، أو هي معطوفة على ألم يروا أن جعلنا الليل وجملة (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) معترضة لاستدعاء أهل العلم والحكمة لتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة، وبديع الصنعة[1]، وهكذا كشف التشبيه عن مكنون الحركة وجعلها أمام الناظرين محسوسة مرئية مشاهدة، حيث أحال النظر إلى السحاب ومروره، وكيفية إتقانه، وصنعه ولو كان المراد من الحركة يوم القيامة ما أتى بصورة المشبه به، ولا أتبعها بإحكام الصنعة، ولا توجيه البيان للتركيز على رؤية الجبال، وهذا يدل على قدرة الله وإبداعه في خلقه.

وتأتي حركة أخرى في قوله تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ. **الرحمن:٣٧**) فحركت انشقت واقترانها بالسماء أمر غير معهود عند المخاطبين، فوصف السماء بأوصاف يوم القيامة تحتاج إلى بيان يظهر معناها، ويقربها في ذهن المخاطب، ليقيس بالبرهان عليه حصول هذه الصورة المؤكدة الواقعة يوم القيامة، ومن ثم آثر البيان (فَإِذَا انشَقَّتِ) فالفاء تحتمل أوجه ثلاثة: من التعقيب الزمني للشيئين الذين لا يتعلق أحدهما بالأمر عقلا، فيكون المعنى أن إرسال الشواذ عليهم يكون قبل انشقاق السموات، ويكون ذلك الإرسال إشارة إلى عذاب القبر، وإلى ما يكون عند سوق المجرمين إلى المحشر، والثاني: للتعقيب الذهني الذي يتعلق أحدهما بالآخر، فيكون ذلك سببا لكون السماء تكون

١ – ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/ ٤٨.

حمراء إشارة إلى أن لهيبها يصل إلى السماء، والثالث: التعقيب في القول، فلأنهم لما قال: (فَلا تَنتَصِرَانِ) أي: في وقت إرسال الشواظ عليكما قال: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء)، وصارت كالمهل إشارة إلى أن الشواظ المرسلة لهب واحد وعليه فإذا انشقت السماء ، وصارت الأرض والجو والسماء كلهم نارا فكيف تنتصران؟ وتأتي إذا هنا بمعنى الشرط وهذا هو المختار، وجزاؤها محذوف؛ لتذهب نفس السامع به كل مذهب في توقع كل هائل عظيم، ولا يمكن حملها على معنى المفاجأة[1]، ومجيء الحركة في ثوب الماضي (انشَقَّتِ) لعرض الشيء الغير حاصل معرض الحاصل؛ لشدة تحقق وقوعه، فهذه السماء المستوية الصافية المتلألئة كما يراها الناظرون في دنياهم ستنشق، ويكون لها حال آخر يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهذا المعنى يحتاج عرضه إلي صورة تجعله ماثلا يراه المخاطب ويشاهده؛ ليقف على معنى قريب منه، وهذا هو دور التشبيه (فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) حيث كشف التشبيه عن حركة السماء عند انشقاقها للنفس، ففي الآية تشبهان الأول: شبهت السماء بالوردة، ووجه الشبه الحمرة في كل، وفي إيثار المشبه به معنى لطيف يتناسب مع حركة السماء وانشقاقها، فالوردة في الربيع أميل إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة أميل إلى الغبراء، فذلك حال السماء عند انشقاقها، ومن ثم شبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن على اختلاف ألوانه[2]، والثاني شبهت السماء بالدهان، ووجه الشبه كثرة التموج والاضطراب، فقد أبانت الصورة عن بعض أهوال ذلك اليوم العظيم، وما يطرأ عن انشقاق السماء من ألوان، وذوب واضطراب، وثمة معنى لطيف في المشبه به الأول وردة، والثاني الدهان هو أنه أفرد الوردة، لأن المراد منها لونها، فيكون المعنى أن السماء الصافية تتبدل، وتتحول إلى حمراء بسبب أهوال يوم القيامة، وما ينتج عنه من فيح جهنم،

١ – ينظر: تفسير الرازي ٢٩/ ٣٦٤.

٢ – إعراب القرآن وبيانه: ٩/ ٤١١.

وإرسال شواذ النار فيها، ثم إنه جمع الثاني الدهان، لأن في الجمع ما يتناسب مع كثرة ما يحدث من تموج واضطراب، وذوبان، واختلاف أحوال، وانشقاق السماء، وتبدل أحوالها من سماء صافية إلى لون يبعث الرعب والخوف في قلوب الناس لا يصل إلى هذا المعنى تشبيه السماء بالوردة فقط، وإنما تفرع التشبيه الثاني من الصورة الأولى، وهي أن السماء وردة كالدهان، ليشير إلى ألوانه المتعددة، وعليه فإن الشبه في الآية (السماء وردة) اشتمل على التفصيل، لأن تحرك السماء وانشقاقها يتطلب تفصيلا يصف هذا الأمر، لتأتي الصورة لتكشف عن الحركة وتوضحها، ومن ثم فلا تصل إلى المراد من الحركة والتصدع إلا من خلال الصورتين المتداخلتين والمشاهدتين؛ ليكون المعنى ماثلا أمام المخاطب من خلال هذه الصورة التي أخرجت ما لم تجري به عادة إلى ما قد جرت به، للدلالة على عظيم الشأن، ونفوذ السلطان؛ لتنصرف الهمم بالأمل إلى ما هناك[١].

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ المرسلات:**٣٢، ٣٣**) هذه الآية جاءت في معرض الحديث عن مصير المكذبين يوم القيامة، حيث وصف الله حالهم وهم ينطلقون إلى نار جهنم، بحركة الانطلاق على ما كانوا عليه في الدنيا من تكذيب، فقال: (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ)؛ ليشير إلى ما كانوا عليه من حبس النفس للحساب وأهواله، وهذه الحركة تستشعر منها بالفرج والخلاص إلى أنه وجه الانطلاق الى ما كانوا عليه في الدنيا من الضلال، وينطلق المؤمن إلى رضوان الله كل على ما كان عليه، ومن ثم فقد يحمل القول على المجاز المرسل لعلاقة ما كانوا عليه من ضلال وتكذيب، أو يكون القول أنهم يكذبون بالنار، وما فيها من عذاب فيكون الأمر على حقيقته، كما يفيد الأمر الإهانة والسخرية، لتتأمل أنفسهم أي عذاب هو الذي ينتظرهم، ثم عاد عليك اللفظ بعينه (انطلق) ليفيد الاستخفاف بهم، وأنهم

١ – النكت في إعجاز القرآن: ص ٨٣.

ليس لهم انطلاق ولا سعي إلا نحو هذا الظل الماثل في قوله (ﷻ): (إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ) كناية عن مصيرهم المحتوم، وما فيه من عذاب النار التي تتشعب ظلالها في كل مكان لكثرة دخانها وتشعبه، وقد نفي تظليل هذا الظل عليهم، لأنه ظل من لهب جهنم الذي يتطاير ويتحرك نحوهم، وهذا هو عين التغيظ والزفير الماثل في قوله: (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. **الفرقان:١٢**) فتنوع العذاب يوم القيامة، ولهيبه عليهم وهم قادمون إلى الاستقرار فيها بعد الانطلاق، تشير إليه تلك الحركة الناجمة عن جهنم (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ)، فالمضارع يصور لك هذا المشهد، وكأنه مشاهد، فالمجرمون في طريقهم إلى النار، وهي في استقبالهم بهذه الرمية المتجددة بالشرر الملتهب فيها، والتأكيد بـ(إن) وضمير جهنم لا لشك، وإنما لزيادة العناية بالخبر، فالترويع والترهيب والتخويف في هذا الموطن يقتضي التوكيد، وحذف المفعول للفعل ترمي للعلم به، ولتسليط الضوء على الحركة الناجمة عن شرر النار حتى لا تنشغل النفس بالبحث عنها، وإنما تتخيل هذا العذاب الواقع عليه، وما يبرهن على ذلك من أنه(ﷻ) عدد أوصاف النار، ولم يذكر النار بلفظها، فالحركة كاشفة لعظمة النار، وما ينتج عنها من شرر حتى تذهب النفس كل مذهب في وصف النار، فإذا كان رمي الشرر هكذا فما بالك بالنار؟ وهذه الحركة وإن أبانت عن عذاب جهنم وفظاعتها إلا أنها لم تكشف عن هيئتها يوم القيامة إلا من خلال هذه الصورة (كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ) لأن النفس قد تظنه ما عهدته في الدنيا من ذرات صغيرة متطايرة هنا وهناك لا مصير لها، ولا وجهة تصل إليها فلم تكن الحركة في (ترم) مفردة دون التشبيه كالحركة به، ومن ثم فقد نتجت عن الحركة مع الصورة لهيب النار من خلال ضخامة الشجر والجمالت الصفر التي تتطاير في الهواء على المكذبين؛ ليترك للنفس مساحة في تصور لهب النار وعظمها، فالتشبيه ترك للنفس تصورا تقف على معناه؛ للوصول إلى المراد من خلال هذه الحركة ترمي وهنا من المبالغة في الوصف بطريق التشبيه أي كل واحدة منهما كالقصر، لأنه لا يجوز أن يكون الشر كله كالقصر ويؤيده قوله: (جِمَالَتٌ صُفْرٌ)

أفلا تراه كيف شبهه بالجماعة أي كل واحدة من الشرر كالجمل، فجماعته إذًا مثل الجمالت الصفر[١].

ودور التشبيه في الحركة يكمن في أن المراد بالتشبيه أنها إذا رمت كان الشرر كالقصر، وليس القصد تشبيه الشرر بالقصر، وفيه صورتان حتى تصل إلى معنى هذه الحركة، وتكشف عن المراد منها الأول: شبه الشرر بالقصر في عظمه وحجمه وارتفاعه، وقيل المراد بالقصر قطع الحطب الغليظ، أو أعناق النخل[٢] والأول أرجح لأنه يتناسب مع عظمه وضخامته، فكأنه في صورته الأولى كالقصر، ثم إنه يتحول من فخامته إلى صورة الجمالات الصفر، في تنوعه وكثرته وتفرقه مع احتفاظه بهيئته في الشرر المصفر، والتشبيه الثاني من تشبيه الشرر بالجمالات الصفر في هيئتها ولونها وسرعتها، وهذا التشبيه على عادة العرب، فهم قد شبهوا الإبل والنوق بالقصور الشامخة يقول الزمخشري: ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل[٣].

وتشبيه حركة الشرر ورميه، بالقصر والجمالات الصفر هو عين الجمع بين المتباعدين، فالطرفان متباعدان، إشارة إلى أن هذه الأشياء المعروفة قد ظهرت من حيث لا يتصور وجودها برؤية أشياء جديدة؛ ليثير ويحرك، لأن في كليهما القصر والجمالات ضرب من المفاجأة في تصويرهما بهذه الأشياء، ومرجع المفاجأة أن النفس قد رأت من الشيء ما لم تتوقع ظهوره منه، وهذا يتناسب مع تنوع العذاب وانصبابه على المكذبين الضالين.

١ – ينظر البرهان: ٣/ ١٣٧.

٢ – ينظر تفسير الزمخشري: ٤/ ٦٨٠.

٣ – الكشاف ٤/ ٦٨٠.

المبحث الثالث: الحركة التي تبرز المشاهد وتجعلها ماثلة أمام الأعين

ومنها قوله تعالى: (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ. الحج: ٣١) تشتمل الآية الكريمة على العديد من الحركات التي جاءت تصف حال الذي جعل مع الله ندا، حيث أوضحت الحركة وكشفت عن صورة خيالية ليست كائنة في الوجود، وإنما جاء بها لبيان سوء عاقبة من أشرك بالله، فقد أهلك نفسه إهلاكا لا نجاة فيه، ليكون أمره مع الإشراك بين حالين لا ثالث لهما إما أن يسقط من السماء فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق، وجاء هذا النظم في ثوب الشرط، لأن ذكره يجعل النفس ترغب في بيان معرفته، وتتطلع إلى مصيره، ومجيء الشرط بـ(من) ليخاطب به كل عقل ليضفي على النص ديمومته وصلاحيته لكل زمان ومكان مهما بلغ من قوة وعلم ومكانة، فمصيره بدون الإيمان الاضطراب والحيرة والتخبط في ظلمات الضلال والكفر، فالشرط يصف أحوال المشركين بالله عبر الوجود الإنساني.

وجاء في معرض الحديث عن الحركة (خَرّ) بكأن لتأكيد الكلام وتثبيته، ولبيان شدة الصلة بين المشرك، وبين هذا التصوير المرعب تصويرا تنخلع له القلوب، ليحمل كل عقل على اجتناب الوقوع فيه، ومجيء كلمة (خَرّ مِنَ السَّمَاء) بعد أداة التشبيه؛ لتترك في ذهن السامع قوة هذا الخيال، وتصوره تصويرا كأنه محقق ومشاهد، فينتقل من كونه معنويا ليس بمرئي إلى كونه ماثلا مشاهدا، فيكون ذلك أبلغ في بيانه ليضع النفس أمام هذه الصورة، لتتمسك بإيمانها وعقيدتها، فتنجوا من هذه المهالك، وتجد دقة القرآن في اختيار هذه الصورة والتي تظهر الدقة في كلمة (خَرّ مِنَ السَّمَاء) حيث اختيرت هذه الكلمة لتصور حال المشرك، وتخبطه في مصير غير معروف لا بقاء فيه ولا استقرار، وفي إيثار هذه الحركة دون سقط ما يكمن عن بواعث الخوف والرهبة الحاصلة لحال هذا المشرك، فالساقط من عال يشق الهواء بجسمه فتسمع لهويه صوتا

يشبه خرير الماء، وهذا يتناسب مع حال الساقط من مسافات بعيدة، ليريك الفرق بين الإيمان والكفر، فكأن الإيمان هو الاستقرار وفي السماء، والكفر هو الخار منها دون تماسك أو انتظام، كما أن في قِصرها وخفتها وتكرار صوت الراء فيها يصور سرعة تكرار السقوط والتقلبات في الهواء، وما حققه التفخيم من تهويل المشهد وعنف الحركة مع سرعتها، وما فيه من استعمال الماضي الذي يدل على تحقق الوقوع[١].

وأما قوله: (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) ما يصور بشاعة هذا الموقف، وتمزق هذا المشرك بعد سقوطه على الفور، ولا أدل على ذلك من استعمال الفاء التي تظهر سرعة تراكم الطير عليه لتمزقه، كما أن في دلالة الخطف ما يدل على سرعة الأخذ والاختلاس بغتة، وفي إيثار الحركة تختطف ما يصور توزعه على الطير، وتمزقه أشلاء بينهما في صورة مشاهدة مرئية أمام السامع، وهذا ما أفاده الالتفات من الماضي (خَرَّ) إلى المضارع (فَتَخْطَفُهُ) ليلفت ذهن السامع إلى هذه العقوبة، ويكمن معنى بلاغي وراء هذا الالتفات هو أنه يشعر بأن ما وقع في هذا المحظور يستحق الإبعاد وعدم الالتفات إليه إلا بهذه الصورة الماثلة في البيان، وثمة معنى بين صورة المشرك بالله وبين المشبه به الخار من السماء الذي تخطفه الطير هو أن الذي "أشرك بالله يسلم نفسه لضلالات الملحدين المتصارعة، فيكون مثل الكائن بين الطيور المختلفة، فيتمزق فكره ووجدانه، وكلما قامت في نفسه حقيقة هدمتها أخرى، وهكذا يظل فكره ينهض لينهدم، يؤمن ليكفر[٢]، وأما قوله (تَهْوِي) فسلكت مسلك تخطف من استعمال المضارع، لتصور هذا المشهد المرعب وتستحضره، وكأنه ماثل أمام الأعين، كما أن دلالتها

١ – ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/ ٢٢٨ و ٢٢٩.

٢ – التصوير البياني: الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى: ص ١٤٦.

توحي بإطالة المدة، وأسند الهوية إلى الريح لبيان الاضطراب، والتخبطات، وكثرة التموج والحيرة حتى كأنهم لا يستقرون بمكان إلا وقد أقلعتهم من جذورهم، كما أن في استعمال الريح ما يتناسب مع شدة الهلاك وسرعة حلوله، وفي استعمال حرف الجر (في) دون غيره ما يوحي بأن هذه الريح قد أسقطته في مكان بعيد وتتلبس بهم تلبس الظرف بالمظروف، واستحوذت عليهم وأصبحت وعاء لهم على جرمهم، والعدول عن (إلى) ما يشير إلى تخبطهم وأنهم لا راحة لهم ولا شفقة عليهم، لأن حرف الجر(إلى) يدل على انتهاء رحلتهم، واستقرار غايتهم بالمكان.

وهذه الحركات (خَرَّ مِنَ السَّمَاء، تَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ) وإن لم يكن لها واقع، فلا يوجد إنسان خر من السماء إلا أن عناصرها مستمدة من الواقع الخارجي تحت أسلوب التشبيه الذي جعل هذه الأشياء مشاهدة أمام الأعين، حيث شبه حال الذي خلع أمن وسكينة واستقرار الإيمان، بحال من خر من السماء، ثم جعل أمره بين صورتين، إما أن تخطفه الطير، وإما أن يسلم منها فيهوى إلى مكان سحيق لا يشبه عالمه الذي يعيش فيه، ووجه التشابك قائم بين الصورتين، فالمشرك في بعده عن الله وزوال أمره بمثابه هذه الأمور التي تنذر بالحيرة وعدم الاستقرار والبعد والبطلان، فهذه الحركة رسمت أمام المتلقي صورة النهاية لهذا المشرك الذي لا سند له ولا مأوى له إلا المكان السحيق، وهذا من باب المركب.

وقد يكون التشبيه في الآية غير مركب إنما هو من باب الإفراد فيكون شبه الإيمان بعلو السماء، والذي أشرك بالله وترك الإيمان بالخار من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يضله بالريح التي

تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[١]، والحمل على التركيب أولى، لأنه لا يدع أمر الكافر إلا وهو بين هذين الأمرين لا مزيد عليهما، أما الأفراد فإنه يفرق أجزاءه، كما أن حمله على المركب أولى، لأن وجه الشبه منتزع من عدة أمور انقسم فيه حال الكافر الى أمرين، وهكذا سيظل هذا المعنى عالقا في الذهن مشاهدا مرئيا، وصفته هذه الحركة الممتدة من الوجود الإنساني وعالم الطبيعة لكل من يجعل مع الله ندا.

وتأتي حركات أخرى تبرز صورة ظلمة الكفر، ومخالفة توحيد الله، والخروج عن الإيمان به وحده لا شريك له، والرجوع الى أباطيل الشرك والكفر، بحالة التخبط والقلق والتمزق، كما في البيان القرآني (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ. **الأنعام: ٧١**). هذه الآية جاءت ردا على دعوة المشركين الذين يحاولون ارتداد بعض المؤمنين عن إيمانهم بالله وحده، فجاء فيها من الأساليب البلاغية ما يبرهن على ثبات المؤمنين على إيمانهم، وما يصور هلاك الكافرين، وبطلان دعواتهم، ومن ثم افتتحت الآية بفعل الأمر والاستفهام (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا)، فالأمر في الآية أفاد تثبيت المؤمنين لمواجهة إنكار المشركين الذين يدعوهم إلى عبادة غير الله، مع تيئيس المشركين من هذه الدعوة، والاستفهام يحمل على الإنكار أي: إنكار دعوة المسلمين لغير الله(ﷻ) وتبرؤهم من الشرك والكفر، ولا أدل على ذلك من استعمال الكناية ما لا ينفعنا ولا يضرنا كناية عن الأصنام، وتكمن بلاغتها في أنها أفادت المعنى مقرونا بالدليل فأثبت حجة أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، ومجيء الطباق فيه تبكيت للخصم، وهدم دعوته، وتصوير منفر لها، لأنه كشف عن عقيدة هؤلاء القوم وإبراز

١ – ينظر: الكشاف: ٣/ ١٥٥.

خداعهم، وأقوى ردا على دعوتهم الباطلة، وأبلغ زجرا لها، كما أنه أبرز عجزهم وهوانهم، وثمة معنى لطيف في الجمع بين النفع والضر دون غيرهما، هو أنه نفى عنهما الضر والنفع، لأن في نفيهما النفي عن كل صفة أثبتتها الكفرة للأصنام، وهذا يبرز مدى عجزهم وضعف دعوتهم، كما أن النفع والضرر يتناسب مع دعوة المشركين، لأنهم ظنوا أن من يعبدها فقد جلب لنفسه النفع، ومن يبعد عنها ولم يعترف بها فقد أوقع نفسه في الضرر، فجاء النفي بما يتناسب مع ما جبلوا عليه فإنها أي: الأصنام لو كانت تستطيع النفع لكانوا هم أولى به ولو كانت تضر لأضرت بالمسلمين، وهذا يظهر عجزها.

وجاءت حركة تظهر عاقبة من اتبع هذه الدعوة، وتكشف عن سوء مصير من سلك طريق المشركين فقال(ﷻ): (وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ) وهذا البيان يكشف عن حقيقة إيمان المؤمنين، وأنهم أشربوا حلاوته بتوحيد الله(ﷻ) واطمئنوا بعبادته، ومن ذاق حلاوة ذلك لا يرجع إلى ظلمات الكفر، وحيرة الضلال، وقلق الإلحاد، واستعمال الحركة في قوله: (وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا) يجعلك أمام مشهد شاخص وكأنك تماثلهم وتشاهدهم، فكأنك تشاهد وتبصر حال المرتد على عقبه إلى الكفر بعد الإيمان إذا أصرف نفسه عن عبادة الله، أو أنك تشاهد حال المؤمنين وما هم عليه من الاطمئنان والاستقرار بعد معرفتهم لله (ﷻ) أيكون منهم رجوع إلى ظلمات الكفر بعد نور الإسلام؟. فهم ينكرون رجوعهم بعد هدايتهم، وهذا يبطل دعوة الكافرين، وقد يراد من الرد على الأعقاب الكناية عن الرجوع إلى الكفر بعد نور الإسلام، وحمله على الاستعارة التمثيلية التي تكشف عن المعنى فيه، تصوير بديع يصور فيه من يرجع ويرتد إلى الكفر بعد الإيمان، بصورة من كان يسير في طريق مستقيم ثم رجع عنه إلى طريق آخر فهلك، وهذا النظم في التعبير أولى من إلقاء الكلام على نرجع عن الإيمان إلى الكفر، لأن الحركة في نرد فيها من التشنيع ما يتناسب مع حال المرتد بعد الإيمان، كما أن مجيء المعنى مصورا يظهره ماثلا مشاهدا؛ ليبرز المعنى إبرازا يرسخ في

النفوس، وهذا يصور الإيمان بالنجاة والكفر بالهلاك، فيكون أزجر وألذع للمرتد، ومع وضوح هذه المعنى يصورها القرآن في صورة أخرى اعتمد فيها بيانها على التشبيه؛ ليبرز ما تتخيله النفوس من صورة قبيحة للشياطين، وهلاك من سلك طريقهم حيث قال(ﷻ): (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ) والاستهواء أصله الهوي، وهو النزول من عال إلى أسفل، فكأن الشياطين لما ارتد عن الطريق المستقيم استهوته في الأرض وطلبت هويته فيها حيرانا تائها ضالا[١]، وجاء على وزن الاستفعال؛ لتشير دلالته أنه هوى في الأرض وذهب فيها، فشبه حال هذا الضال الراجع إلى الكفر بعد الإيمان، بحال الإنسان عن هويه من مكان عال إلى مكان عميق مظلم يتخبط فيه، فلا يدري أين يذهب، كذلك ارتبط لفظ استهواء الشياطين بمعتقدات بعض الناس بمن فقد عقله، واستحوذت عليه الشياطين وسحرتهم فجنى، وعليه فيكون المعنى أنه شبه من رجع إلى الكفر بعد الإيمان، بحال من فقد عقله فأخذ يتيه في الأرض، ويذهب فيها فلا يدري من أين أتى ولا أين يقبل، والعرب يقولون من استهوته الشياطين إذا اختطفت الجن عقله فسيرته كما تريد[٢]، وأتبع حال الذي استهوته الشياطين بقوله حيران، وهذا الحال يبرز مدى اضطرابه وقلقه، وعدم الاهتداء إلى سبيل حتى إنه ضل عن معالم الطريق فسلك مسلك الهلاك والضلال، وهذه الحركة تبرز المعنى النفسي في صورة حسية مشاهدة تصور فيها حالة الشياطين وهي تستهوي عليه وتحبط فيه، فيتيه في الأرض في مخيلة السامع، فيصل إلى المعنى المراد بنفسه ويتخيله، فتذهب نفسه فيه كل مذهب، ثم إن جمع الشياطين يمنح الحركة قدرا من القوة في التخبط والتيه في الأرض، فليس الذي استهواه

١ – ينظر إعراب القرآن: ٣/ ١٤٣.

٢ – الكشاف: ٢/٣٧.

شيطان، وإنما عليه جمع من الشياطين المسلطين عليه، فيكون حيرته في الأرض أكثر، وتخبطه فيها أقوى، وهكذا قد أوضحت الحركة المعاني الماثلة في الأوهام شبها كائنا في الأشخاص، ونقلت المعنى من الأشباح الماثلة في عقول الناس إلى هذه الصورة في الواقع؛ لتقف على حال التارك لدين الله المتخبط في الأرض، والمتشبث بدينه المطمئن به.

وأما مجيء الحركة في قوله تعالى: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا. **النحل: ٩٢**) فتصف حال من ينقض عهده ويرجع عنه، بحال من غزل ثم نقض غزله، فيفسده بعدما كان صالحا، وهذه الحركة تجسد هذا الشيء المعنوي في صورة حسية مشاهدة؛ لتنقل السامع إلى حد العيان، وذلك أبلغ في التأثير، فالآية تحض الناس على إيفاء العهد، وعدم نقضه بعد توكيده، وذلك عن طريق النهي عن نقض العهد، حيث قال(ﷻ): (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا) فجاء في صورة الأسلوب الطلبي بصيغة النهي الذي يفيد الثبات والدوام على العهد والميثاق، رغبة في الاستجابة والامتثال، وعدم نقض العهد والميثاق حتى لا يقع في المنهي عنه، فتكون صورته مثل صورة من لا يعقل، وجاء بالفعل المضارع لتجدد حدوث هذا النهي عند كل ميثاق، فتكون صورته أقوى وآكد في الحض على إبرام العهد، وعدم نقضه وجاء بفعل (تَكُونُواْ) دون ولا تعملوا، أو ولا تفعلوا؛ ليشير هذا اللفظ إلى أن من وقع في النهي فقد أوجب لنفسه هذه الصورة الماثلة التي قررها القرآن لكل من ينقض عهده بالتي تنقض غزلها بعد قوته.

وجاء المعنى في قوله تعالى: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا) مصورا لتكمن بلاغته في أنه أخرج النفوس من الخفي إلى الجلي؛ ليوجب للنفس أنسا بالمعنى، فتطمئن إليه وتهتدي إلى المعنى من خلاله، وثمة فرق بديع في مجيء النظم على المعنى مصورا بهذه الصورة وقولنا: ولا تكونوا كمن نقض غزله،

أو كمن نقض عهده من بعد ميثاقه، هو أن الأول ظهر من خلاله الإعجاز القرآني، لأنه لما ضرب المثل بالمشبه به التي نقضت غزلها لتبشيع هذه الصورة، لأنه حمل الكلام على أن هذه المرأة يضرب بها المثل في إفساد من أصلح شيئا بعد تمامه، وذلك لاشتهار هذه المرأة بالصلة، ولا أدل على ذلك من إيثار الاسم الموصول (التي) ليقصد حضورها في ذهن السامع متميزة تمام التميز؛ ليقف السامع بنفسه على أن من وقع في الأمر، فقد صدر منه فعلا لا يصدر عن عقل، كامرأة بني تميم وهي ريطة بنت سعد بن زيد "وكانت حمقاء تغزل الغزل هي وجواريها، فإذا غزلت وأبرمت أمرتهن فنقضن ما غزلن"[1]، وتضمنت هذه الجملة تشبيها تمثيليا حيث شبه حال من ينقض العهد، أو من ينقض في يمينه بحال المرأة التي تغزل غزلا ثم تنقضه، ووجه الشبه إفساد الشيء النافع في كل بعد تقويمه وإحكامه، وقد راعى في المشبه به عدة أشياء لو أهمل جزء عن الآخر اختل المعنى، وعلى هذا فوجه الشبه منتزع من عدة أمور منها: كون المشبه به المرأة، وكونها تغزل غزلها ثم تنقضه بعد تمامه وإحكامه، وكون الغزل محكما لا موجب لنقضه وهدم فتله وإعادته من جديد، لأنه لو كان غير ذلك لهدم المعنى وضاع مقصود الكلام، ومن ثم أتى بلفظ القوة كناية عن صلاحه واستوائه على سوقه، وهذه الحركة تظهر حماقة المرأة وسذاجتها وسوء تصرفها، وتبدو دور الحركة في أنها رسمت هذه الصورة أمام المتلقي، وأبرزتها في معنى حسي مشاهد؛ ليكون المعنى أردع في نقض العهد وألزم في الاستجابة والاستقامة عليه. وأما قوله: (أَنكَاثًا) فجاء بهذه الحركة ليقرر في الكلام المنهي عنه هذه الصورة كي تنفر النفوس منها، فبعد صلاحها ونفعها صارت غير صالحة لا فائدة منها، وجاء في أساس البلاغة نكث الحبل...

١ – تفسير الرازي: ٢٠/ ٢٦٤ .

وتغزل النكث والأنكاث وهو ما ينكث من الأكسية والاخبية ليغزل ثانية[١]، ومنه يقال: نكث فلان عهده إذا نقضه بعد إحكامه[٢]، واستعير لعدم الوفاء بالعهد[٣]؛ لتكشف حركة غزل حبال الصوف وغيره من إبرام النسج عن شدة التزام المرء بيمينه، وإيفاء عهده كالقطعة إذا أحكمت وتم غزلها، وحركة نكث خيوطها المبرمة من هذه القطعة المنسوجة بعد إحكامها؛ لتكشف عن نقض العهد بعد إحكامه في صورة مشاهدة مرئية للسامع، فيكون ذلك أدعى للفعل المرهب منه وأزجر أن تكون له صورة محققة على المؤمنين.

وتأتي حركة أخرى تصور مشهد الكارثة التي حلت بالذين لا يؤمنون بالله(ﷻ)، وقد مكروا ودبروا المكايد لمن آمن به قال(ﷻ): (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ. **النحل: ٢٦**) فالمكر هو التدبير المحكم لإلحاق الضرر بالغير في صورة تمويهية بالنصح والنفع[٤]، واللفظ مستعار للعمل السيء، والسر البلاغي في دلالته هو إصرارهم على هذا المكر السيء وثقتهم فيه، كما أنه يشعر بحيلتهم في تحري المكر والضرر والمكائد والمؤامرات في صورة النصح والنفع، ومجيء النظم تسلية للنبي(ﷺ) عما أصابه من مكر المشركين له، وإيثار لفظ المكر هنا دون الهلاك له معنى بلاغي لطيف هو أن يشعر السامع أن الهلاك الذي لحق بهم من جنس صنعهم ومكائدهم، وهذا له أثره على المخاطب، ومن وقع عليه مكر الكافرين، وفيه كبت الماكرين، واستئصال قوتهم وتمكنهم،

١ – أساس البلاغة: نكث.

٢ – ينظر: تفسير الرازي ٢٠/ ٢٦٤.

٣ – ينظر: التحرير والتنوير ٩/ ٧٣.

٤ – ينظر: التحرير والتنوير: ١٤/ ١٣٤.

وهذا هو سبب مجيء الحركة (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ)، ومجيء الحركة في لفظ الإتيان دون المجيء مع أن هذا في مقام الأخذ بالقوة المباغتة التي تستوجب الغلظة وعدم اللين، وذلك لأن الإتيان من جانب الله(ﷻ)، وأن يكشف أن هذا المكر والتدبير الذي أخفي لم يكن شيئا إذا أتى أمر الله، والإتيان والحركة على الله(ﷻ) محال فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد[١]، فشبه الاستئصال بالإتيان والجملة كناية عن إرادة الهلاك أي: هلاك هؤلاء القوم الذين دبروا المكر، ومجيء لفظ البنيان والقواعد كناية عن قوة هؤلاء القوم، وكثرة مكرهم وعتادهم، أو يكون كناية عن شدة الأخذ والإتيان والهلاك الذي حل بهؤلاء القوم، والذي أتى بهم من أساس بنيانهم، فيكون المعنى أشد نكاية وألذع في الجزاء، وقد يكون لفظ البنيان مستعارا للقوة والعزة والمنعة وعلو القدر بجمع التحسن والتمكن[٢]، وقد يكون المعنى على ظاهره، وأن الله سلط عليهم آياته الكونية فاقتلعت أبنيتهم من قواعدها وهم تحت الركام، وتأتي حركة أخرى تزيد من شدة عذاب هؤلاء القوم، وتزيد من المصيبة التي حلت فيهم، فقال(ﷻ): (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ) والخر السقوط من أعلى وهاهنا مستعار لزوال ما به المنعة، والسقف غطاء الفراغ بين جدران البيت، ويكون من حجر ومن أعواد، وهاهنا مستعار للقوة والعزة والمنعة، وعلو القدر[٣]، وإيثار حركة خر دون سقط لأن في الخر ما يتناسب مع المقام؛ لشدة ما حل بهم، كما أن دلالة الخر وما يحدث عنه من صوت يتناسب مع هدم السقف عليهم، ومجيء الخاء وتشديد الراء ما يبرهن على هول هذه الكارثة التي حلت بهم، إذ الحركة صورتها تصويرا بديعيا، وتقديم الجر والمجرور عليهم؛ للإيذان بأن

١ – ينظر: تفسير الرازي: ٢٠/ ١٩٨.

٢ – ينظر: التحرير التنوير: ١٤/ ١٣٤.

٣ – ينظر: المصدر السابق نفسه: ١٤/ ١٣٤.

السقف قصدهم قصدا عن عمد، ولو قيل: خر السقف عليهم لما أفاد النظم المعنى الذي قصده المقام، إذ قد يظن الظن أن السقف خر عليهم وعلى غيرهم، فلم يكن الكلام عن عمد، ونظم البيان القرآني يشير إلى أن السقف لم يترك أحدا منهم، ولم يتجاوزهم إلى غيرهم.

وأما قوله(ﷻ): من فوقهم تتميم، لأن خر السقف لا يكون إلا من فوقهم، وبلاغة التقييد به للمبالغة في شدة العذاب، والأخذ الأليم، والعقاب الشديد، وتأتي دلالة (من) لبيان جهة الشيء وتأكيده، ومن ثم فإن ذكر الفوقية لم تكن فضلة في الكلام بل كان لها دور دقيق ولطيف في بيان المقصود لولا وروده في النظم لاختل المعنى وضاع المقصود، فكلمة خر السقف لا تفيد أكثر من أن السقف قد خر، وقد يكون خر وهم ليسوا تحته، أو أصاب البعض منهم، لكن لما ضم من فوقهم في النظم إلى عناصر البيان كان النظم (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ) زال ذلك الاحتمال والظن، وتحقق وعيد الله فيهم أنهم كانوا تحته، وقد تهدم عليهم فماتوا، وفي الآية استعارة تمثيلية حيث شبه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة، فأخذهم الله بسرعة، وأزال تلك العزة، بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا إليه، فاستأصله الله من قواعده، فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا[1]، والجامع هيئة شيء مانع محصن لقوة بقائهم، كان سببا في القضاء عليه، وهذه الاستعارة وما حوته من حركات قد أضفت على البيان تفخيم هذا المنظر وتجسيده، وكأن السامع يرى منظرا حيا، وصورة ملموسة لهذا الدمار الذي لحق بالذين مكروا.

وقد يحمل الكلام على ظاهره، فيكون المعنى أن الله أسقط عليهم هذا البنيان بعد أن اقتلعه من قواعده، وهذا ما رجحه ابن جرير –رحمه الله– حيث

١ – ينظر: المصدر السابق نفسه: ١٤/ ١٣٥.

بين أن أمر الله أتى أصولها وقواعدها فانكفأت بهم منازلهم[١]، وجاءت حركة أخرى تظهر قوة الأخذ بغتة حيث قال(ﷻ): (وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ) فإسناد الإتيان إلى العذاب من قبيل المجاز العقلي، فالعذاب لا يأتي وليس هو الفاعل الحقيقي، وإنما أسند الفعل إليه مبالغة في قوة الإتيان، وشدة العذاب، وثمة معنى بلاغي لطيف وراء استعمال حركة المجاز أتاهم أنه أضفى على النظم صفة التخييل، وصور العذاب متحركا نحو هؤلاء القوم، وهذا يتناسب مع الشدة التي لحقت بهم، وأما قوله(ﷻ): (مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ) فقد أكد الله نفي علمهم ببغتة هذا العذاب لهم من حيث إسناد الفعل المنفي إلى ضميرهم لا يشعرون، وهذا يفيد أن ما اعتمدوا عليه في القوة والعذاب وظنوا به المنجا، قد تولد منه الهلاك والدمار والعذاب، وهذا فيه التهويل والوعيد والمبالغة في التحذير لمن سلك مسلكهم.

وتأتي حركة أخرى من الإقبال والإدبار تدل دلالة ظاهرة على قدرة الله(ﷻ) وعظيم صنعه، حيث قال: (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ. وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. **التكوير: ١٥– ١٩**) تأمل في هذه الآيات من حركات جسدتها الآيات الكونية، والتي أضفى عليها البيان صفة الحياة، فأصبحت المعنويات والأمور المجردة شاخصة ماثلة أمام الأعين، حيث أقسم الله(ﷻ) بهذه الأشياء العظيمة الدالة على قدرته –تعالى– فقال: (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) لأن جحود الكافرين ومنكري يوم القيامة، وما فيه من أهوال جاء بها السياق القرآني للسورة، جعلتهم يسخرون من رسول الله(ﷺ) ويقولون عليه ما ليس فيه، فجاء القسم القرآني بالآيات والأدلة الكونية الظاهرة أمامهم، وما فيها من حركة وسكون تماشيا مع معرفتهم وحياتهم، للتأكيد والجد

١ – ينظر تفسير ابن جرير: ١٤/ ٦٨.

في القول، ومن ثم آثر القسم للإخبار عن هذه الحركات، لأنه من الأساليب التي تستخدم في توكيد الإخبار، لأنه يبعث المرء على التفكير الجاد القوي فيما ورد القسم من أجله[١]، وعليه فالفاء في البيان لتفريغ ما تقدم من تحقيق، وثبات وقوع يوم القيامة وأهواله، وأما قوله: الكنس فهي حركات النجوم الرواجع بينا ترى النجم في آخر البرج إذا كر راجعا إلى أوله[٢] أي: من الاستخفاء والاستتار، حيث أراد القرآن أن يصور للسامع حركة النجوم التي تخنس بالنهار، ويغيب ضوؤها عن الناظرين، ثم إنه جاء بحركة أخرى وإن كانت من جنس هذا الموصوف، والتي تثبت قدرة الله وعظمته في تدبير كونه فقال(ﷻ): (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) والجواري جمع جارية، وهي التي تجري أي: تسير وتظهر مع القمر، وتختفي وقت غروبه، وإطلاق الخنس والكنس على الكواكب من قبيل المجاز، فشبه الكواكب في حاله كونها مخفية عن الأنظار، بالوحشية المختفية عن أنظار الصيادين، بجامع السكون والاختفاء في كل على سبيل الاستعارة التصريحية، أو يكون المعنى من قبيل التشبيه التمثيلي حيث شبه هيئة النجوم وظهورها، بهيئة خروج الوحشية من كناسها، وشبه سيرانها بعد خروجها نحو الاختفاء والغروب، بهيئة دخول الوحشية في كناسها[٣]، وعليه فإن المجاز يصور هذه الآيات الكونية في صورة مرئية تتحرك وتسكن أمام السامع؛ ليبعث في نفسه التفكير الجاد القوي نحو المراد، فيمكن المعنى في النفس فضل تمكن، أو أنه(ﷻ) يريك أن يعلمك أن هذه النجوم والأجرام تسير نحو اختفاء نورها وتخنس، والجواري السيارة تسكن وتكنس؛ ليوقف السامع على معنى جديد، وهو والليل إذا عسعس بالعطف على ما قبله لاتفاق الجملتين في الإنشائية لفظا ومعنى، لأن الليل داخل في حيز القسم والإتيان

١ – ينظر من بلاغة القرآن الكريم الدكتور أحمد بدوي ص ٧٠.

٢ – ينظر تفسير الزمخشري: ٤/ ٧١٠.

٣ – ينظر التحرير والتنوير: ٣٠/ ١٥٣.

بالشرط (إذا) إشارة إلى أن ما بعدها لا يتحمل إلا حتمية الوقوع والقطع بوجوده، فحركة الليل من الإقبال والإدبار متجددة وحاصلة، والعسعس قيل: هو الإقبال، وقيل: يستعمل في الإدبار، أو أنه من المعاني المشتركة التي تستعمل في الشيء وضده[١]، فمن الأول أقبل ظلامه، وفي إيثارها ووصف الليل بها ما يشعر بصورة الليل في حركة الإقبال، وتمدد ظلامه وسطوته على ضوء النهار بظلامه المتراكم في مخيلة السامع، لأنه جعل المعنى محسوسا مجسما في لفظ عسعس، حيث شبه الليل في إقبال ظلامه وإدباره، بإنسان ثم حذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإقبال والإدبار الماكن في لفظ عسعس على سبيل الاستعارة المكنية، وتأمل دقة لفظ عسعس ومضاعفته للعين والسين والتي توحي بتكرار هذه الحركة واستمرارها في الإقبال والإدبار في امتداد الأفق، وانفلات ضوء النهار منه، في تصوير بديع يبث في الليل الحياة، وأضفى عليه صفة الكائن الحي.

وأما قوله: والصبح إذا تنفس فمشترك مع ما قبله وجاري على حذوه، فالتنفس أصله إخراج النفس من الجوف فيعقبه الراحة، وتأمل دقة القرآن في اختبار لفظ تنفس دون غيره كطلع وظهر، لأن في استعماله ما يجعل النفس تقف على قدرة الله وعظم صنعه في كيفية إجلاء ضوء الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا عسعس، كما أنه يوقف السامع على حركة ضوء النهار، وكأنه إنسان مهموم من دمس الليل وحدته عليه، فإذا ذهب ظلام الليل زال همه وكربته، فالحركة تصور الصبح وكأنه يتلفظ أنفاسه بزوال ظلمة الليل، فالصبح والليل من الأمور المعنوية التي لا يتصور منها إتيان أو مجيء أو حركة لكنها شبهت بمن يكون منه الحركة؛ تجسيدا وتشخيصا لهما على سبيل الاستعارة المكنية،

١ – ينظر الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٥٩.

أو يحمل الكلام على التصريحية، فقد شبه نور الصبح وانتشار الضوء بالتنفس، وهذه الاستعارة تكمن بلاغتها في أنها تزيح الأستار عن ظلام هذا الليل الدامس، بانشقاق فجر جديد؛ ليبث في روح المؤمنين الإرادة والتجدد ليوم جديد انشق فجره؛ ليكشف عن الكون هذا الظلام المعسعس على ليلهم؛ لتدب الحركة فيه بعد السكون؛ ليستدرك ما فاته ويغتنم ما هو آت، وهكذا بثت هذه الحركة في ثوب الاستعارة؛ لتصبح المعنويات شاخصة مماثلة أمام الأعين، ويصير فاقد الحياة يتحرك فيقبل ويدبر ويتنفس، وأما قوله(ﷻ): (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) هو جواب القسم، والمتأمل يجد أن القرآن جاء بالقسم، ثم أتبعه بنظائره وأطال في بيانها؛ ليتأمل السامع فيها ويعرف قدرة الله وتدبيره في خلقه، فيتشوق إلى المقسوم عليه، فإذا جاء استقر في نفسه وتمكن فضل تمكن، وجاءت حركة الخنس والكنس في ثوب الجناس الناقص؛ لجذب الأذهان إلى هذه الآيات الكونية، والوقوف على قدرة الله فيها لتعرف أن الذي سير هذه الآيات في الدنيا قادر على تسييرها في الآخرة، وأن الذي يملك هذا هو الذي أنزل الكتاب على رسوله(ﷺ) فالآيات دلالة واضحة على تصديقه، وأنه وحي يوحى إليه، كما أنه كشف عن المراد في أبهى صورة وأدق عبارة، فأصاب المعنى وكساه أبهة وجمالا.

وتأتي حركة أخرى تظهر قدرة الله ووحدانيته حيث قال(ﷻ): (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. **يس:٣٧**)، فسطوة الليل على النهار وزوال ضوئه من كمال قدرته، والانسلاخ بمعنى القشط والإزالة يقال: سلخ فلان جلد الشاة إذا أزاله عنها[١]، وإيثاره هنا بمعنى إزالة ضوء النهار عن الليل، ولعل التعبير بحركة نسلخ في ثوبها المجازي دون الحقيقة كالانقطاع والانفصال والزوال، لأن السلخ أبلغ وآكد وأبر للمعنى؛ لما فيه من شدة التفرق والانعزال عن

١ – ينظر لسان العرب: سلخ.

غيره، كما يوحي بشدة سطوة الليل وأخذه النهار بغتة دون إرادة، كذلك السلخ، كما أن إيثار المعنى في ثوب المجاز أبلغ في المراد من الحركة في الحقيقة، حيث شبه إزالة ضوء النهار وسطوع ظلمة الليل عليه، بسلخ الجلد بجامع الإزالة في كل، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل، وتكمن بلاغة الاستعارة في ثوب حركة الليل على ضوء النهار نسلخ، في أنها تصوير بديع جميل أضفى على الليل والنهار صفة الحياة، وبين شدة اتصال الليل بالنهار، والتحامه به حتى كأنه استولى على إنارته بمحو إزالته في صورة مشاهدة يتخيلها السامع في عقله، ويصل إلى معناها في مخيلته، كما أن مجيء النظم في ثوب الحركة نسلخ "تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلا، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مخفيا من ظلمة الليل"[١].

وقدرة الليل وحركته بإزاحة ضوء النهار آية من آيات الله التي أراد الله بيانها للناس؛ لتكون برهانا واضحا مرئيا أمامهم على وحدانيته وقدرته، فكما أنه أحيا الأرض بعد موتها، فكذلك أنشأ الظلمة بعد الضياء، وإيثار الطباق بين الليل والنهار تصوير بديع يضع النفس أمام هذه الظاهرة المتعاقبة أمامهم، فكما انسلخ الليل من النهار وأزال نوره، فكذلك يتنفس الصبح بنوره، ويكشف ظلمة الليل، وأما قوله: (فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ) يظهر أن الليل جاء على النهار، وكأنه مخف عنه يتدبب إليه ببطء حتى استولى على نوره، وأزاحه فجأة، ولا أدل على ذلك من استعمال (إذا) الدالة على المفاجأة، كما أن دلالتها تتناسب مع حتمية وقوع الظلام، ومجيء الخبر في قوله: (مُّظْلِمُونَ) أي: أنهم دخلوا في ظلامه وقد حل عليهم، وختم هذه الآية بهذا يقع تحت فن التوشيح، وهو أن يكون في أول الكلام

١ – من بلاغة القرآن ص ١٦٧.

معنى إذا علم علمت منه القافية بشرط أن يكون المعنى المتقدم بلفظه من جنس معنى القافية[١]، وعليه فالسامع بمجرد سماع حركة انسلخ يقع في ذهنه كشط الضوء وإزاحته حتى حل الظلام بدلا منه، وهذه الصورة مرئية ومتجددة وحاصلة لتكرار وقوعها أمام الناظرين.

وتأتي حركة تظهر حيرة واضطراب قوم حيث قال(ﷻ): (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ.. **الكهف: ٩٩**) فالموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال: ماج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط[٢]، وإذا تأملنا سبب الحركة في البيان نجد أنها كانت نتيجة لترك الله (ﷻ) لهؤلاء القوم، والترك حقيقته مفارقة شيء شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة[٣]، وهو المراد هنا حيث شبه حالة القوم وما هم عليه ثم تغييرها، بحالة من كان قرب ثم ذهب، بجامع التخلي في كل[٤]، والمراد بـ(يَوْمَئِذٍ)قيل: يوم القيامة أي: تضطرب الخلائق، ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى إلا أن المراد الوقت الذي جعل الله ذلك السد دكا، فعنده ماج بعضهم في بعض، وبعده نفخ في الصور[٥].

واختيار حركة موج البحر لحيرة هؤلاء القوم في الصورة البيانية يموج بلاغة عليا، لأنها لا توقف السامع عند المعنى المستعار فقط، وإنما تجعله يسمع ويشاهد حركة هؤلاء القوم واضطرابهم وعظم حيرتهم، بحركة البحر واضطرابه وتفرق أمواجه دون معرفة أو استقرار، حيث شبه حركة يأجوج ومأجوج واضطراب أحوالهم، أو اضطراب حركة الخلائق المجتمعة يوم القيامة، بحركة

١ – ينظر إعراب القرآن وبيانه: ٨/ ٢٠١.

٢ – لسان العرب موج.

٣ – ينظر التحرير والتنوير: ١٦/ ٤٠.

٤ – ينظر المصدر السابق: ١٦/ ٤٠.

٥ – ينظر تفسير الزمخشري: ٢/ ٧٤٨، وتفسير الرازي ٢١/٥٠٠.

موج البحر بجامع الاضطراب والحركة في كل، وتكمن بلاغة الصورة في اختيار حركة البحر دون استعمال الحقيقة من حركة تخليط بعد الخلائق في بعض أو تزاحمهم، لأن الله أراد أن يظهر قوة اضطراب هؤلاء القوم، وعظم اختلاطهم فأتى بالصورة البيانية الموج، لأن قوة الماء أعظم، كما أن حركة الماء لا تجعل السامع يقف عند اختلاط القوم بعضهم ببعض بل إنها تصور هذا الجمع الحاشد الذي لا تدرك العيون مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حيرة وتموج واضطراب[١]، فكأن الحركة تموج تجعل السامع يشاهد هذا الاضطراب، لأنها جعلت المعنى ماثلا أمام الأعين باستعمال حركة الماء في حركتهم، واستعمال المضارع للدلالة على أن هذه الحركة متجددة ومتكررة كتكرار حركة البحر، ومجيء حرف الجر (في) لبيان شدة تداخلهم وتزاحمهم حائرين فازعين، كذا يكون تداخل الموج مع بعضه لبعض، وعليه فلا تصل إلى المعنى المراد إلا من خلال هذه الحركة الماثلة أمام الأعين من حيث اضطراب البحر وحركة تموجه.

وتأتي حركة أخرى تظهر شدة تضرع زكريا(عليه السلام) بضعفه ووهنه وشيبته ورجائه فيما عند ربه ليرزقه الولد حيث قال(عز وجل): **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا.. مريم: ٤)** وحركة انتشار الشعر الأبيض في الرأس قد صورتها هذه الحركة في نظمها ماثلة ومشاهدة، وهذه الآية جمعت من دروب المعاني والألفاظ والصور ما أطلق عليها "من محاسن المجاز، ومن مثمرات البلاغة"[٢]، والذي أوجب ذلك أن حركة انتشار الشعر الأبيض في الرأس لم تصل إلى ثمرة البلاغة إلا وهي في ثوب المجاز (اشتعل) وهو مقرون بالسياق، فكون المشتعل الرأس، والوقت زمن

١ – ينظر من بلاغة القرآن: ص١٦٧.

٢ – الطراز لأسرار البلاغة: ٣/ ٢٣١.

الشيب، وعلى ذلك لا ترى المزية في استعمال الحركة الحقيقة انتشر الشيب في الرأس، وكذلك لا ترى المزية عند الوقوف على الحركة نفسها (اشتعل) دون السياق، وثمة فرق بين مجيء الحركة في قوله: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) وبين شاب شعر الرأس، أو انتشر الأبيض في الرأس، فبين الأول وغيره فرق بعيد لما للأول من صورة خاصة على المعنى قد حصلت به تفخيمه وزيادته والمبالغة فيه حتى إنه أفاد أن الشيب انتشر في الرأس انتشار النار في الحطب، وأنه أي الشيب لم يترك مكانا إلا وقد استولى عليه، أما الثاني فإنه لم يقف على هذا المعنى، ولم يكن بارا به، فضلا عن أن الأول في إيثاره للمجاز قد جعل المعنى مشاهدا حسيا أمام المتلقي، كما أن استعمال حركة اشتعل تتناسب مع المعنى، لأنها لا توقفك على معنى انتشر فحسب لكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس ببطء وثبات، كما تدب النار مبطئة في دأب واستمرار حتى إذا تمكنت اشتعلت فلا تبقي ولا تذر، كذلك يحرق الشيب ما جاره من الشباب حتى لا يبقى منه شيئا إلا وقد قضى عليه[1]، وما يعتمد عليه المعنى مجيئه في ثوب الاستعارة التصريحية، حيث شبه انتشار الشيب في الرأس باشتعال النار، بجامع السرعة والظهور في كل، وتكمن بلاغة الصورة في أنها أضفت على المعنى المبالغة، وزادته بأن صورت سرعة انتشاره في الرأس وإحاطته بها، بسرعة انتشار النار حتى أضفت على المعنى المفاجأة في ظهوره، وبيان حاله من الضعف والوهن، وقد يحمل المعنى على المكنية حيث استعير شواذ النار للشيب، بجمع البياض والإنارة[2]، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الاشتعال، وقد

١ – ينظر من بلاغة القرآن الكريم: ص ١٦٧.

٢ – ينظر تفسير الزمخشري ٣/٤..

جعل السكاكي الجميع حسيا أي: المستعار له، والمستعار منه، والجامع وهو الانبساط، على سبيل الاستعارة بالكناية[١].

وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي علاقته المكانية، وتكمن بلاغته في التهويل والمبالغة في قوة انتشار الشيب في الشعر، وكثرة ازدحامه وإحاطته في جميع الرأس حتى يخيل للسامع أن محل الشيب هو الذي ينتشر ويتحرك، وكأن حركة الانتشار قد تجاوزت الشعر إلى الرأس لإفادة شمول الشيب فيها، وثمة معنى بديع يجعل الشيب الفرع قد تجرأ على الأصل، وهو سواد الشعر، والتمييز الحاصل في كلمة (شَيْبًا)، وإيثار النكرة فيها يدل على أنها فرع عن المعنى، وفرق بين أن تأخذ المعنى اشتعل وتنسبه إلى ما أسند إليه في الآية، وأن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا، فتقول: اشتعل شيب الرأس، فإنك لا تجد ذلك الحسن، ولا تلك الفخامة، ولا ترى روعة كالروعة التي كان عليها البيان القرآني، والسبب في المزية أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذ من نواحيه، وأنه قد استغرقه، وعم جملته حتى لم يبق من السواد شيء، وهذا لا تجده في حركة انتشار واشتعال شيب الرأس[٢]، وهكذا تضرع زكريا(عليه السلام) لربه بهذا النداء الذي جاء في صورة المحسوس المشاهد للأعين، فالسامع عندما يطالع هذه الآيات، فكأنه يشاهد بنفسه اشتعال الشيب وانتشاره، فيتمكن الوهن في عقله، ويثبت المعنى له، وفرق بين أن تسمع المعنى وأن تشاهده ماثلا، وقد ترتب على هذا التضرع البشارة بالذرية.

١ – ينظر المطول: ٥٩٣.

٢ – ينظر دلائل الإعجاز ص ١٠١.

وتأتي حركة أخرى تظهر المعارك الضارية بين الحق والباطل، وتصور انتصار الحق على الباطل حيث قال الله(ﷻ): ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ..﴾ **الأنبياء: ١٨)** والقذف هو الرمي، والدمغ هو الشج حتى بلغت الشجة الدماغ، وهو مخ الرأس وهو مقتل، ويقال: دمغ الحق الباطل أي: أبطله وأهدره[١]، والحق والباطل من الأمور المعنوية، فأتى بالقذف والدمغ وهما من الأمور الحسية؛ ليصور هذه المعارك وقد بلغت ذروتها بين الحق والباطل أمام المتلقي، في صورة كأن الحق من شدة إبطاله الباطل، واعتلائه عليه، وإهداره ومحقه قد شجه وشاطره، فأزهق روحه، وقد جاء ذلك وسط نظم يدل على شدة الحق وقهره الباطل، فبعد أن بين الله في سياق الآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأن هذا الخلق الهائل لم يكن عبثا، وإنما عن حكمة وأن الله لم يكن له ولد، جاء بهذا البيان المفتتح بقوله (بَلْ) والتي هي للإضراب لتنزيه الله عن الولد والشبيه والنظير، وهي تشعر السامع بقوة ما بعدها، ومن ثم آثر القرآن القذف على الرمي أو غيره من الدلالات، وهذه الكلمة تشعرك بسرعة محو الحق الباطل بسبب القوة المصاحبة للسرعة، والتي تهبط على الباطل من كل اتجاه، وكأن الحق حاصره وقضى عليه، وفي استعمالها في نظمها البلاغة العالية، لأنها صورت تلك الإهانة التي لحقت بالباطل على وجه الإكراه والقهر، وشدة الأخذ، وعودة الضمير على الله(ﷻ)؛ للإيذان بأن هذا الوعد الذي وعد به أهل الحق وعد حق لا يمكن أن يخالطه ريب أو شك، والإتيان بالمضارع (نَقْذِفُ) للإشعار بأن الحق لا ينقطع عن محاربة الباطل، وأن أهل الباطل لن يكفوا العداوة له حتى تأتي القدرة الإلهية بمحقه وإزالته وإزهاقه، وإيثار حركة القذف دون الرمي؛ للإيذان بسوء المقذوف، وأنه بلغ به السوء مبلغا استحق به الفعل، وإيثار

١ – ينظر لسان العرب: دمغ.

الصورة فيه دون الحقيقة؛ ليقرب المعنى ويجعله حاضرا أمام السامع حتى شبه الصراع بين الحق والباطل، بالمعارك التي وقعت فيها الغلبة للحق، والمصور كالمرئي المكشوف الذي لا يخفى على أهله، وهو أخذ الباطل يشاطره نصفين، حيث شبه الحق بشيء صلب، والباطل بشيء ضعيف، واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق ومحو الباطل على سبيل الاستعارة المكنية، وقد يحمل المعنى على التصريحية حيث شبه القذف بالايداد والتثبيت بجمع التمكن في كل، وشبه المحو بالذهاب بجامع عدم بقاء الأثر في كل، وهذا المعنى أضفى على البيان الحياة، وكأن الحق تربص بالباطل فأخذه أخذا لم يبق منه أثر، كأنه(ﷺ) قال فمن "عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك لفظ القذف والدمغ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه"[١].

ومجيء حركة الدمغ في صورة المضارع ليصور للسامع هذه الصورة وكأنه يشاهدها وينظر إليها، وهي تشج الرأس حاضرة ماثلة، كما أفاد استمرارية الضربة المرة بعد المرة؛ ليشعر بأنه كلما أراد أن يقاوم وتبث فيه الحياة دمره من جديد ليزهق، ولا أدل على ذلك من استعمال حرف العطف الفاء، والتي أضفت على البيان سرعة شجه، وإفاضة روحه من جديد، والتعبير بـ(على) يقرر استعلاء الحق على الباطل وغلبته عليه، ومجيء الطباق بين الحق والباطل يصور هذه المعارك، ويجسدها بين الطرفين، وكيف كان للحق الغلبة على أهل الباطل لشدة الحق وقوة أهله، وبيان ضعف ورخوة أهل الكفر حتى كأنه أي: الحق "كقذيفة

١ – تفسير الزمخشري: ٣/ ١٠٧.

مصوبة تصيب الباطل فتزيله من أساسه"[1] ومجيء التعبير بالدمغ دون غيره؛ ليريك شدة تأثير هذه القوة الفاعلة من الحق على الباطل، وأنه قصده قصدا، وترصد به ترصدا أراد به محوه وإزالته حتى ضربه بعناية شديدة على أم رأسه، فدمغه عن عمد وقصد، ومن ثم جاء البيان القرآني بقوله: (فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) والتي جمعت من أدوات البلاغة ما يبرهن على سرعة الأخذ وشدة الضرب، فآثر (إذا) الفجائية للدلالة على كمال السرعة في ذهاب روح الباطل، وأن دمغه كان مفاجأة دون ترقب أو استعداد، كما أن المفاجأة والمباغتة تبين شدة الصراع والجهد بين أهل الإيمان وأهل الكفر، لأنه لا تكون المباغتة قائمة إلا إذا كان قد دار بينهما الكثير من المعارك، وأن أهل الإيمان جاهدوا جهدا كبيرا أهل الكفر حتى جاءت مباغتة الحق للباطل فلم يبق منه شيء، ولا أدل على ذلك من إيثار الاسمية (هُوَ زَاهِقٌ) لشدة تأثير الحق في محو الباطل، وثبات محقه ودوام بطلانه، كما أن المباغتة تفيد أن الباطل قد اعتلى واستعلى حتى إذا وصل ذروته فجاءته المباغتة من الحق، فكان السقوط موجعا، وكان بطلانه ألذع وأشد مرارة، ومجيء الضمير (هو) ما يبرهن على أنه لم يبق له أثر، وقد طوي من هذه الحياة واستأصل منها، والتعبير بالإزهاق وهو الموت مجاز، حيث شبه المحو بالإزهاق بجامع عدم بقاء أثر في كل، وهذه الاستعارة في ثوب حركة زاهق تصور إبطال الحق الباطل وإهداره، وأنه ذهب بالكلية فكأنه زاهق في الأصل، وهكذا نقلت الحركات المصورة في البيان المعاني إلى المشاهدة والمماثلة أمام المخاطبين؛ لتسلية قلوب أهل الإيمان بالحق والصبر عليه والتمسك به، وبدحض الكفر والباطل.

١ – البيان في ضوء أساليب القرآن: ص ١٦٩.

المبحث الرابع: الحركة ذات الدلالات الفنية الكاشفة عن المعنى

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾. **الذاريات: ٢٩)** جاءت هذه الحركة في معرض الحديث عن بشارة الله(ﷻ) لسيدنا إبراهيم(عليه السلام) وزوجته سارة بالغلام بعد أن بلغ بهما الكبر، وكانت زوجته عاقرا، ولقد سجل القرآن الكريم هذه الحركة ونقلها كما هي ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لتفي بالغرض المقصود الذي لأجله ساق الكلام في هذا البيان، وتعبير القرآن بهذه الحركة التي تعبر عن حالها، ورصدها لتصور ما جاش في نفسها من هول وذهول لهذه البشارة، استعظاما لأمر الله وقدرته، وإيثار القرآن لهذه الحركة صك، والتي أبرزت بالدلالة الفنية الكاشفة عن المعنى حيث صورت لنا مشهدا حيا يتصور مفاده كل من أدركته مسامعه هذا البيان؛ ليقف بنفسه على حال المرأة، وما كانت عليه وقت البشارة من دهشة واستنكار من حيث العادة التي عليها لا من حيث قدرة الله، إذ لا تلد النساء اللَّاتِي في سنها من حيث العادة، والصك هو تلاقي شيئين بشدة حتى كأن أحدهما يضرب الآخر[1]، وقد تسمى اللطمة صكة إلا أن القرآن آثر الصك لتتناسب مع المقام، لأن اللطمة تنتج عما أصابته محنة ومسته بلية، فأفرط في حزنه حتى وقع في المحظور، فتكون اللطمة تمثيلا عليه، لذا عدل القرآن عنها إلى الصك، لأنها بشارة في الخير، ولأن القرآن أثبت الإقبال دون غيره من دلالة المجيء والإتيان والدخول، فالإقبال فيه الفرح والسرور بالقادم، ولكن الصك منها لاستغرابها أن تلد في سنها وهي عاقر، فالضرب للتعجب، وقد يراد من الصك هنا الضرب على الوجه لا الخد أي: أنها لما سمعت بحديثهم عن البشارة لم تتكلم من هولها، وإنما فعلت حركتها اللاإرادية على فمها دون خدها من هول الموقف، ثم نطقت قائلة:

١ – ينظر لسان العرب، ومقاييس اللغة: صك.

(وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)، ثم إنها استعملت ما يدل على تفجعها وهول أمرها وتعجبها بعد الإقبال عليهم في حركة سريعة عبر عنها بالمضي في أقبلت في صرة أي بصيحة عالية، ويحتمل أن يقال تلك الصيحة كانت بقولها: يا ويلتا تدلت عليه الآية التي في سورة هود[1]، واستعمال الظرفية (فِي صَرَّةٍ) يدل على أن هذه الحالة سيطرة واستحوذت عليها، فلم تعد من عظم البشارة تسيطر على حالها، ولا أدل على ذلك من مجيء الحركة اللاإرادية المقرونة بحرف العطف (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا)، فإيثار الفاء لتدل على سرعة حدوث هذا الفعل، وهذا يتناسب مع المقام فالصيحة الشديدة صاحبتها ضربة باليد على الوجه، وما يدل على تفجعها وسبب حركتها اللاإرادية قولها: (وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) فأتت بالسبب المانع لها القائم على عدم الإنجاب، وفيه إيجاز بالحذف حيث حذف المسند إليه لشدة المقام عن إطالة الكلام بسبب ما انتابها من البشارة وما لحق بها من هول، وتقدير الكلام: وقالت أنا عجوز عقيم، كما أن في الحذف تسليط الكلام على السبب المراد من عدم الإنجاب وهو الكبر والعقم، هذا وقد صورت هذه الحركة الناجمة عن امرأة إبراهيم(عليه السلام) حالها، ونقلها القرآن كما هي لتكون كاشفة عن المعنى واضحة له، لأن ما فيها من عقم مع كبر سنها وضعفها يحول بينها وبين الإنجاب، فنطقت مندهشة من هول المفاجأة، ولا تصل إلى هذا المعنى إلا من خلال الحركة الماثلة في صك الوجه، والتي أوضحت دهشتها وهي تسمع من الملائكة بشارتها بالغلام، فتعجبت كيف تلد هي وزوجها وقد شاخا؟ ولو قيل: في غير القرآن فأقبلت امرأته في صرة وقالت عجوز عقيم من غير أن يذكر صك الوجه لعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكن الله لما حكى الحال، وجاء بالحركة فقال(عز وجل): (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا) علم بذلك قوة إنكارها من حيث عادة النساء لا من

١ – ينظر تفسير الرازي: ٢٨/ ١٧٧.

حيث قدرة الله، وتعاظم الصورة لها هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، وقد قيل ليس المخبر كالمعاين[١]، ومن ثم فقد تعاظم الأمر في نفسها، فأخبرت بالسبب المانع لها، وجاء قوله: (قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) بالفصل عما قبله لشبه كمال الاتصال، وفيه تذييل جميل يقرر الكلام ويؤكده، وجاء بالخبر مؤكدا واسمية الجملة؛ لإزالة هذا التعجب والاندهاش، وختم البيان بالحكيم والعليم فيه دلالة على حكمة الله على تأخير وقت الإنجاب عنها، وهذه الحكمة تكون عن علم لتشملها رحمة الله وبركاته إنه حميد مجيد.

ولقد رصد القرآن الكريم حركة إحدى ابنتي شعيب عليه السلام(عليه السلام) وهي قادمة على موسى(عليه السلام) تستأذنه في الذهاب معها إلى أبيها لإعطاء الأجر جزاء السقاية لهما قال تعالى: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا.. **القصص: ٢٥**)، هذه الحركة كشفت عن مكنون معنى ذات دلالات لن تصل إليها إلا بالحركة تمشي على استحياء منها الستر والعفة والطهر، وما يدل على شدة عفتها استعمال القرآن لفظ المجيء، لأن المجيء لم يكن رغبة منها وإنما دعوة من أبيها، وقد أثبتته وأكدته قائلة: (إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ) بالتوكيد بإن واسمية الجملة، والتنصيص على صاحب الدعوة، والإخبار بسببها (لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)، والناظر في هذا البيان وهو أجر السقاية يجد أنه استجابة لدعاء موسى(عليه السلام) ربه حين قال: (إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، ولا أدل على ذلك من اقتران الفاء مع فعل المجيء للتعقيب وسرعة الاستجابة، وقد آثر القرآن الإيجاز لتسليط الضوء على سرعة الفرج من الله(عز وجل) لموسى(عليه السلام) لما قضى حاجة المرأتين للدلالة على سرعة الإجابة، لأنه "لما

١ – ينظر الخصائص لابن جني: ١/ ٢٤٦، ٢٤٧ ط ٤– الهيئة المصرية للكتاب.

رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما ومجيئهما سريعا، فسألها عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى(عليه السلام)، فبعث إحداهما إليه لدعوته"[1]، فجاءته دعوة من أبيها.

ولقد جمعت حركة المرأة في المجيء إلى موسى(عليه السلام) الحسنيين حين وصف القرآن المشي بالحياء فما بال المرأة؟ وحالها أنها بلغت مبلغا عظيما في الحياء حتى إنها من كثرة حيائها استعلت عليه وفاقته، ولا أدل على ذلك من إيثار حرف الجر على الذي يفيد الاستعلاء أي: قدمت عليه وهي مستعلية بالحياء، فالتعبير قد يحمل على الاستعارة التبعية في الحرف، فشبه مدخول (على) وهو شدة الستر والطهر والعفة، بالاستعلاء الحقيقي بجامع تمكن الوصف في كل، ثم سرى التشبيه إلى التشبيه في معنى، فشبه شدة سترها وحرصها على عفتها وتمكنها من ذلك بالاستعلاء الحقيقي بجامع التمكن في كل، ثم استعيرت (على) الموضوعة للاستعلاء لتمكن الحياء منها المستعلية عليه على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف[2]، فحركة المرأة طبيعة ليست مصطنعة، فحياء المرأة ثابت لا يتغير لموقف أو قرار، وقد استعمل القرآن المضارع في إثبات الحركة (تَمْشِي) للتجدد مع الاستمرار حتى من كثرته صارت تستعلى عليه، لأن من عادتهن عدم الحديث مع الرجال، والوقوف بعيدا عن الزحام، ولا أدل على ذلك من إيثار القرآن (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) من أجل ذلك وصف القرآن الحركة بالاستحياء، كما أن إشارة القرآن إلى الحركة بلمح خاطف يشبه لمح الطرف، وبلغة هي لغة

١ – تفسير ابن كثير: ٦/٢٠٥.

٢ – قد أجريت الاستعارة على رأي الخطيب ينظر بغية الإيضاح: ص ٣٠٥.

النظر إلى وصف جمالها الرائع الفتان باستحياء لأن الخفر[١] من صفات الحسان، ولأن التهادي في المشي من أبرز سماتهن قال الأعشى:

كَأنّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جارَتِهَا * * مرّ السّحابةِ، لا ريثٌ ولا عجلُ[٢].

وقد آثر القرآن التعبير بالمشي عن غيره من الدلالات، لأنه يتناسب مع الحركة اليسيرة البطيئة التي تتناسب مع حركة المرأة، وحيائها عند قدومها على موسى(عليه السلام)، وهذه المرأة الفاطنة الذكية الطاهرة رأت في موسى(عليه السلام) القوة مع الأمان، فعبرت عن ذلك بقولها: (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ)، فقد اجتمع للمرأة الحياء والجمال والذكاء والفطانة، ومجيء الحركة بالفعل المضارع دون الماضي، لينقل الحدث إلى زمن التلاوة؛ ليتدبر القارئ والسامع، ويتصور عفة هذه المرأة، فيذهب عقله في عفتها وتطهيرها كل مذهب، ومجيء الفاء مع (فَسَقَى لَهُمَا) يدل على أنه أسرع في طلب قضاء الحاجة دون تردد، وجاء قوله(عز وجل): (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) بـ(ثم) العاطفة التي تفيد التراخي أي: أنه قطع شوطا كبيرا، ووقتا عظيما في السقاية، وأنه جهد جهدا عظيما حتى من كثرة التعب تولى إلى الظل، ومجيء الفاء في قوله(عز وجل): (فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) أي: أنه كان في أشد الحاجة إلى هذا العمل، لعله يفرج كربه، ويقضي حاجته، ثم جاء القرآن بالفاء (فَجَاءَتْهُ) لتشير إلى أن هذا الكلام مترتب بعضه على بعض، فالمجيء كان من أجل أجر السقاية والدعوة من أبيها، فقدمت عليه حال كونها تمشي على استحياء، هذا وقد رصد القرآن حركة المرأة في استحيائها، وقد نتج عن قضاء حاجة الغير الأمن والسكن والزوجة، فسكن موسى واطمأن بسبب خير قدمه.

---

١ – خفرت المرأة: اشتد حياؤها لسان العرب خفر.

٢ – ديوان الاعشى: ١/٤٨، وإعراب القرآن الكريم وبيانه: ٧/ ٣٠٥.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ. **المنافقون: ٥**﴾ جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن دعوة جماعة من المؤمنين للمنافقين أن يقبلوا على رسول الله(ﷺ) يستغفر لهم، فما كان منهم إلا أنهم أعرضوا مستكبرين عن الطاعة يلوون أعناقهم إعراضا وتكبرا، فرصد القرآن هذه الحركة عليهم ليسجل وينقل أعمالهم، ويصف ما يدور في خلجاتهم، وينقل هيئتهم حال إعراضهم عن رسول الله(ﷺ)، فهذه الحركة (لَوَّوْا) أراد القرآن أن ينقلها عليهم لتكون كاشفة لحال إعراضهم عن الإيمان وأهله وانغماسهم في الكفر، وهي حركة ترسم صورة بغيضة لهؤلاء المنافقين نقلها القرآن؛ ليراها المتلقي رؤية الرائي المبصر لشيء أمامه، ومن ثم لا تصل إلى المعنى المراد إلا من خلال هذه الحركة (لَوَّوْا) والتي بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر يقال: لوى فلان رأسه إذا أمالها وحركها[1]، واللفظ كناية عن التكبر والإعراض الماكن في أنفسهم عن دعوتهم إلى الإيمان، وجاءت هذه الحركة في سياق حرص المؤمنين على دعوة المنافقين إلى الإيمان، فجاء السياق مقترنا بإذا الشرطية التي تفيد تحقق حدوث الفعل، ليسجل عليهم دعوتهم إلى الإيمان، وعنادهم عن هذه الدعوة والإعراض عنها، ومجيء (قِيلَ) لما لم يسم فاعله لكثرة من دعاهم، أو أنهم يدعونهم في كل زمان ومكان، وهم على هذا الحال، وهذه الحركة علامة عليهم، نقلها القرآن لإثبات الحجة على أنهم أعرضوا عن الإيمان وكرهوه، والتعبير بأسلوب الأمر (تَعَالَوْا) الذي يفيد النصح والإرشاد، وإيثار الفعل (تَعَالَوْا) دون أقبلوا، يتناسب مع دعوة المؤمنين للمنافقين، وذلك لما في هذه الصيغة من امتداد صوتي يتضمن إرادة تخليص هؤلاء المنافقين مما هم فيه من كفر وضلال، والإتيان بضميرهم (لَهُمْ) لتخصيصهم وانفرادهم بهذه

١ – ينظر لسان العرب: لوى.

الدعوة، ليتبين موقفهم منها، ومن ثم أثبت القرآن هيئاتهم في إعراضهم عن الدعوة بصيغة لي الرأس في صورة المضارع، لأن هذه الحركة كشفت عما يضمروه في أنفسهم من استمرارهم على الكفر، وثباتهم عليه، فهم حين يقبلون على رسول الله (ﷺ) كما أوضحت السورة في مفتتحها يقسمون ويشهدون بالإيمان، وإذا خلوا ومضوا مع المؤمنين رجعوا إلى كفرهم، فإذا دعوا الى الله ورسوله تلمح منهم لي أعناقهم إعراضا عن التوبة والإنابة، ثم أثبت القرآن حجة عليهم بعد حركة لي الرأس حيث قال: (وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) فالرؤية بصرية محققة لتأكيد الصد والإعراض عن الإيمان، ومجيء المضارع يصدون يصور هيئة هؤلاء القوم في كل زمان ومكان وهم يعرضون عن الحق إذا دعوا إلى الله ورسوله، ومجيء قوله: (وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) لتأكيد حركة الصد عن دين الله حالة كونهم مستكبرين، حيث نقل القرآن هيئتهم وهم في حالة الإعراض، وقد غلبتهم القوة والهيمنة وتصور الفضل على غيرهم، فأتى بهذه الجملة لتأكيد المعنى، وذلك لا محالة أشد بثبوته، وأدخل في التحقيق، تنبيها على خطائهم وضلالهم في أنهم لا ينتفعون بنصح، ولا يسمعون لرأي.

وما زال الحديث متصلا عن حركة الرأس تعبيرا عن منكري البعث إنكارا وتعجبا واستهزاء وسخرية بما يسمعون، فهذه الآية (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ. الإسراء: آية٥١) تسجيلا لإحدى حركاتهم يستبعدون بها البعث بعد الموت، وقد صارت الأجساد رفاتا، ولقد رصد القرآن هذه الحركة (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ) بعد أن استدرجهم حتى يلزمهم الحجة القاطعة في أنهم ما فعلوا ذلك إلا تكبرا وسخرية واستهزاء، والناظر في سياق هذا البيان يجد أن هذه الحركة الماثلة منهم أتت بعد حجة عليهم، وهم يجادلون في أمر البعث والقرآن يستدرجهم في حكايتهم ويبكتهم فيما يدعون، وما حكاه القرآن عنهم في السياق أنهم أنكروا البعث لكونهم عظاما رفاتا في قوله: (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) فالآية كناية عن البلى، وإيثار العظام والرفاة لبيان شدة

فنائهم وعدم وجودهم، وبقاء أثر عليهم، ومن ثم نكرت العظام والرفاة، وجاء بالاستفهام في أقوى صوره من حيث التوكيد (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) لأنهم ينكرون ويستبعدون البعث من جديد وهم على هذه الحالة، فناسب البيان حالتهم التي كانوا عليها، وفي البيان ما يبين تكبر هؤلاء القوم، وشدة جحودهم لله(ﷻ) حيث عبر بقولهم: (لَمَبْعُوثُونَ) دون قولهم: أيبعثون الله، لكن هذه طبيعتهم التي تظهر على أقوالهم وعلى حركاتهم كما ستأتي في (فَسَيُنْغِضُونَ)، فحجتهم في إنكار البعث كونهم رفاتا، فاستدرجهم القرآن (قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا) فالأمر الحاصل لهم يراد منه التسوية بين كونهم حجارة أو حديدا، أو خلقا مما يعظم في نفوسكم تتصورون الحياة فيه، فجاء الخطاب من منكر البعث (فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا) فعبر القرآن بالمضارع المقرون بالسين لثباتهم على هذا الإنكار، فلما كان الأمر محقق الوقوع عندهم خاطب القرآن النبي(ﷺ) بما سيكون عليه حالة إعراضهم وعنادهم، تسلية له (ﷺ) وقد حمل صاحب التحرير والتنوير الاستفهام على التهكم[1]، وفيه معنى الإنكار والاستبعاد.

وجاء قوله(ﷻ): (قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) بالأمر إرشادا لهم إلى الحق، والطريق الصحيح بالاستدلال إلى أن الذي خلقهم هو الذي يعيدهم من جديد، والتعبير بالاسم الموصول (الَّذِي) "لقصد ما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأن الذي فطرهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم"[2] تقريرا وتأكيدا، فيكون الخطاب ألزم لهم، لأنهم يقرون ويعترفون بكون الله هو الخالق، فيكون المقام أفحم للخصم، وأبكت وألزم بالحجة والبرهان، هنا تأتي الحركة الكاشفة عما يضمروه من كفر وعناد بعد استدراجهم في هذا الحديث، حيث نقل القرآن أقوالهم

١ – ينظر التحرير والتنوير: ١٢٨/١٥.

٢ – المصدر السابق نفسه: ١٢٨/١٥.

وأفعالهم وحركاتهم، ويصف ما يدور في أعماق نفوسهم، فكأنك تراهم وهم ينغضون رؤوسهم أعلى وأسفل، تكذيبا واستبعادا للبعث، فاللفظ كناية عن التكبر والاستهزاء، وقد صورت الحركة حال هؤلاء وهم في أبشع صورة صادين عن الحق، شامخين مستكبرين حتى كانت هذه الحركة الكاشفة لاستفهام آت (مَتَى هُوَ) أي: منكرين مستبعدين لذلك الوقت والفرق بين حركة نغض الرأس، وليها في البيان السابق أن حركة نغض الرأس تتناسب مع مجارات الحديث، والاستدراج في البيان حتى يوهم غيره بأنه يتابعه، وهذا يتناسب مع المقام، فهم يستمعون للقرآن، وهو يقرر فيهم أمر البعث حتى تبين كفرهم وعنادهم من حركة رؤوسهم يتعجبون ويستنكرون ويستبعدون متى يكون البعث، أما لي الرأس فيتبعه الإعراض والتولي، وهذا يتناسب مع حال المنافقين في البيان السابق، لأنهم أعرضوا عن الطاعة مستكبرين.

فحركة نغض الرأس علامة على تبكيت الخصم، واعترافه بالذي كان من أمر المخاطب إلا أن كبره واستهزاءه منعه من ذلك، فذهب وهو ينغص رأسه، ولا أدل على تبكيت الخصم من حركة نكس الرأس الظاهرة على قوم إبراهيم(عليه السلام) قال تعالى: (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ. **الأنبياء: ٦٥**). فبعد أن حطم إبراهيم(عليه السلام) أصنامهم سألوه من فعل هذا بأصنامهم؟ فرد عليهم على سبيل التعريض بل فعله كبيرهم لتبكيتهم، لأنهم يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فاعترفوا بذلك ورجعوا إلى أنفسهم، ولكن سرعان ما عادوا إلى ضلالهم، فأخذوا في المجادلة بالباطل، فجاءت حركة تنكيس الرأس علامة على ضلالهم حيث قال الله تعالى: (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ)، وإيثار ثم العاطفة تقرر أنهم أخذوا يتدبرون ويتفكرون في كلام إبراهيم(عليه السلام) برهة حتى أقروا بالحجة عليهم، ثم بين القرآن حالتهم من الاستهزاء والمكايدة بتنكيس الرأس، حيث شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانتكاس

رجل على رأسه بجامع الانقلاب في كل، عن طريق الاستعارة التصريحية، والاستعارة تصور لك مدى انكسارهم وانهزاهم حتى إنهم ما قدموا شيئا إلا كان حجة عليهم، حيث قال الله(ﷻ): (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ) لوثوقهم في علمه أنه يعلم أنها لا تنطق فكيف يسالوها عن الفاعل؟ وإيثار حركة تنكيس الرأس لتناسب هيئة هؤلاء القوم، فكما أنهم رجعوا عن الاستقامة بعد وصفهم أنهم هم الظالمون في تهمتهم إلى إبراهيم(عليه السلام) عادوا إلى جرمهم، فناسبهم تنكيس الرأس، ولم يكتف القرآن بهذه الهيئة، وإنما قرنت بحرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء أي: انكبوا على رؤوسهم، فاستعلت أجسامهم عليهم.

وجاءت حركة نكس الرأس علامة على الندم والحزن الشديد يوم القيامة قال تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ. **السجدة: ١٢**). فعبر عن حالة الندم بنكس الرأس، وجاءت حركة نكس الرأس في صورة اسم الفاعل؛ لثبوت واستمرار خزيهم وندمهم يوم القيامة، وقد دخلت (لَوْ) في الآية على المضارع، وأصلها أن تكون للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط، وانتفاء الجزاء[1]، ودخولها على المضارع في الآية لنكتة بلاغية؛ لتنزيل هيئة المجرمين وهم ناكسوا رؤوسهم، منزلة الماضي في تحقق الوقوع لصدوره منهم، وصدق إخباره(ﷻ) عنهم، أو يكون استعمال المضارع في الآية لاستحضار صورة المجرمين يوم القيامة، وهم على هذه الهيئة من الندامة والحسرة، وإبرازها أمام الأعين وكأنها مشاهدة، فيكون وقعها أشد تأثيرا، فحالتهم في الدنيا من المكابرة والتعالي، والتصدي عن الإيمان، وعدم اتباعه وإعراضهم بسبب تعطيل أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وقلوبهم عن سماع الحق كانت سببا في نكس رؤوسهم يوم القيامة، وتمنيهم

١ – ينظر المطول: ص ٣٤٠.

الرجوع مرة ثانية بعد أن أبصروا وسمعوا، ليعملوا من الصالحات فنقل القرآن هذا المشهد مع حركة المجرمين ليصور حالهم، وما كانوا عليه من تكذيب بيوم القيامة، ومن استهزائهم بمن يذكرهم بهذا اليوم، حيث نقلت الحركة ما لحق بهم من حسرة وندامة جزاء تفريطهم في جنب الله.

ولا أدل على ذلك من قول الله(ﷻ) حكاية عن نوح(عليه السلام): (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ. **نوح: ٧**) ولقد سجل القرآن على قوم نوح(عليه السلام) هذه الحركة جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم، ليصور نفورهم وإعراضهم عنه أبلغ تصوير، فنوح(عليه السلام) في دعوته سلك جميع مسالك الدعوة حتى ظهر قبح هؤلاء القوم حين سدوا آذانهم لئلا يسمعوه في دعوته، وغطوا أبصارهم كراهية النظر إليه، فنقل القرآن هذه الحركات على لسان نوح(عليه السلام) (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ) فآثر التوكيد رغبة المتكلم في توكيد كلامه لما يعانيه من ظلم قومه، فهو يدعوهم إلى سعادتهم وهم مصرون على هلاكهم وطغيانهم، والتعبير بلفظ (كلما) التي تدل على شمولية دعوته واستمرارها وتجددها بين الحين والآخر لحصول المغفرة، كانت موانع الصد موجودة حيث استعمل (جَعَلُوا) بلفظ جعل التي تفيد القوة والهيمنة على الشيء الواقع عليه الفعل، وإسناد الحركة إليهم جميعا بلفظ واو الجماعة، واستعمال حركة الأصابع دون أطرافها مبالغة في قوة الصد عن طريق المجاز المرسل لعلاقة الكلية، حيث أطلق الكل وأراد الجزء، والسر في العدول من الحقيقة إلى المجاز رغبة القوم في تعطيل حاسة السمع بأقصى ما يمكن مبالغة في نفور القوم وإعراضهم، وكذلك حمل واستغشوا ثيابهم على المجاز المرسل أي: جزء من ثيابهم، فكأنهم غطوا أجسامهم كراهية النظر إليه، وقد يمكن حمل حركة الأصابع في الآذان، واستغشاء الثوب على الحقيقة، بأن يكون ذلك من عادات قوم نوح(عليه السلام) إذا أراد أحد أن يظهر كراهية كلام من يتكلم معه أن يجعل أصبعيه

في أذنيه، ويجعل من ثوبه ساترا لعينه، ويجوز أن يكون تمثيلا لحالهم في الإعراض عن قبول كلامه ورؤية مقامه، بحال من يسد سمعه بأنملتيه، ويحجب عينيه بطرف ثوبه([1])، وقد يحمل البيان على الكناية عن تعطيل آذانهم عن السماع له، والعداوة الماكنة في قلوبهم، وكراهية النظر إليه، هذا وقد صورت الحركة عناد قوم نوح(عليه السلام)، وجحودهم للإيمان، وقد عطلوا أسماعهم وأبصارهم عن سماع الحق، وأصروا على كفرهم واستكبروا استكبارا عن سماع الحق، فكان الجزاء من جنس هذا الصد حيث قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. الملك:١٠) ولا تصل إلى هذا المعنى ولا دلالته الماكنة في لفظه من حيث شدة المبالغة في العناد والاستهزاء والسخرية بنوح(عليه السلام) ودعوته إلا من خلال حركة الأصابع في الآذان، وحركة تغطية الوجه بالثياب.

وهذه الوجوه المستحبة للعمى على الهدى ستأتي يوم القيامة يسحبون على وجوههم في النار قال تعالى: (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. **القمر: ٤٨**) فحركة سحب المجرمين يوم القيامة من وجوههم إلى النار فيها إذلال وحسرة وندامة لا تصل إلى هذه الدلالة إلا من خلال حركة سحب الوجوه، لأن الوجه علامة عز ووجاهة على الرجل، فإذا ذل وجهه ذلت قيمته ومن ثم قيل: ذهب ماء وجهه أي: لم يعد فيه حياء، ولقد نقل القرآن هذه الحركة يسحبون عن المجرمين في صورة المضارع، لأن المشهد من مشاهد الآخرة مع هذا لا يخلو من استحضار تلك الصورة كأنها مشاهدة أمام الأعين لتثير الفزع في نفوسهم، وهذا أبلغ وأشد تأثيرا في النفوس، ولقد صورة هذه الحركة هيئة المجرمين وهم يأتون النار، فلم يعد المشهد موصوفا فحسب بل عاد بهذه الحركة مصورا محسوسا وشاخصا أمام الأعين، فكأن النفس تستحضر هذه الهيئة ولفحة

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٢٩ / ١٩٦.

النار تسحبهم من وجوههم، والتعبير بيوم في ثوب النكرة وما أوحت به من مضاعفة العذاب واستحقاق النار، وما في حرف الجر في النار وما أوحى به من تلبس الظرف بالمظروف، مبالغة في تصور العذاب الذي حل به حتى إن النار طوقتهم بها وأحاطت عليهم، وهذا جزاء تكبرهم في الدنيا واستهزائهم بالإيمان.

وفي إيثار حركة السحب ما يتناسب مع حالة المجرمين وهم قادمون على النار؛ لما فيها من قوة وعنف وإهانة ومذلة، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: (إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ. **غافر: ٧١)** فجمع الأغلال والسلاسل وجعلها في الأعناق مهانة ومذلة لهؤلاء، والتعبير بـ(إِذِ) التي هنا ظرف بمعنى إذا، وإيثار الظرف الدال على المضي للدلالة على تحقيق الخبر، حتى كأنهم قد قيدوا وقبلوا من أعناقهم، والعذاب قد وقع بهم، لأن هذه الأمور المستقبلة لما كانت من إخبار الله(ﷻ) متيقنة مقطوعة بها عبر بلفظ ما كان ووجد[1]، والتقييد والتكبيل هنا لا يحمل على المجاز إنما هو عين الحقيقة أي: تربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل، ويسحبون بتلك الهيئة إلى الحميم، ثم في النار يوقدون ويحرقون جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات ربهم.

ولقد نقل القرآن بعض الحركات التي تكشف سوء مصيرهم وحسرتهم وندمهم على التفريط في جنب الله واتباع رسله، حيث قال(ﷻ): (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. **الفرقان: ٢٧)** فالعض الشد بالأسنان على الشيء ليؤلمه أو ليمسكه[2]، ويكون لفوات شيء محبب للنفس لا يمكن تعويضه ولا الرجوع إليه، فيقوم الجسد ببعض الحركات التي لها دلالات فنية كاشفة لا تصل إليها إلا بمعرفة الكلام ومنها: عض الظالم على يديه يوم

١ – ينظر الكشاف: ٤/ ١٧٨.

٢ – لسان العرب: عض.

القيامة، لأنه ليس أحد أشد ندما ولا حسرة يوم القيامة من الظالمين، ولقد سجل القرآن عليهم هذه الحسرة، وصورها تصويرا بليغا عن طريق الكناية عن صفة، وتلاحظ مدى دقة القرآن في التعبير عن شدة الندم، فالعض يكون على الأنامل كما في قوله تعالى: (وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)، وعليه فهناك فرق بين الحركتين في المعنى فعض اليد ليس كعض الأنامل، لأن الثاني في شأن المنافقين فكانوا إذا رأوا ثبات المسلمين وقوتهم وتماسكهم اغتاظوا وكرهوا ذلك وغضبوا غضبا شديدا فصاحبتهم هذه الحركة نتيجة غيظهم وحقدهم على المؤمنين، أما الحركة الأولى وهي عض اليد فكانت في شأن الظالم الذي لا بشرى له يومئذ ولا رجوع له ليعمل من الصالحات، ومن ثم فحسرته أشد وأبلغ، فناسبها عض اليد مبالغة في خيبته وتحسره، فبلاغة الحركة في ثوب الكناية جسدت المعنى وأبرزته في صورة محسوسة مشاهدة، فكان ذلك أدعى لترسيخ المعنى في النفس.

ولقد سجل القرآن حركة على الجاحد لنعمة الله عليه حيث قال(ﷻ): (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا. **الكهف: ٤٢**)[1] وتقليب كف الإنسان تصوير بديع لما أصابه من هم وحزن وحسرة على ما اقترفته يده ونفسه من جهود، وقد هلكت أمواله وذهب ثمره، فالحركة كناية عن شدة الحسرة والندم، ولا تصل إلى هذه المعاني التي أفادها النظم إلا من خلال هذه الحركة ذات الدلالات الفنية، وفرق بين هذا وبين قولنا: أحيط بثمره فأصبح مهموما على ما أنفق، فالنظم القرآني أصاب المعنى، لأنه جعل صاحب الثمر مقرا بذنبه معترفا بخطئه، فضلا عن شدة الألم والحزن الذي أصابه جراء ضياع جهده وماله، وما يبرهن على ذلك استعمال الحركة في ثوب الكناية.

١ – ينظر البحث ص ٤١، وما بعدها.

وتأتي حركة أخرى لليد ترسم صورة البخيل الذي لا يستطيع أن يمد يده بالإنفاق، لأن يده مغلولة مكبلة إلى عنقه، وآخر تصوره حركة بسط اليد بالذي لا يبقى من ماله شيء في صورة بغيضة لا تصل إليها إلا من خلال حركة اليد في كونها مقبوضة إلى العنق، ومبسوطة كل البسط، حيث قال تعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىَ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا. **الإسراء: ٢٩)** وأول ما نلاحظه في هذه الحركة أنها جاءت منهية عنها حيث قال(ﷻ): (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) فأسلوب النهي أفاد النصح والإرشاد، رغبة في الامتثال والاستجابة لصورة النهي في الآية، ومجيء المعنى في ثوب الحركة كون اليد مغلولة، ومبسوطة له دلالات فنية أصابت المعنى المراد، حيث استعمل اليد في النفقة، "لأنها آلة لأكثر الأعمال لا سيما في دفع المال وإنفاقه"[١]، وهذا من قبيل الاستعارة التمثيلية[٢]، حيث شبه هيئة حال البخيل في الامتناع عن الإنفاق في وجوه الخير، بهيئة اليد وهي مغلولة إلى العنق بجامع عدم التصرف، وشبه هيئة المسرف المبذر لماله، بحال من يبسط يده كل البسط، فلم يبق منها شيئا بجمع عدم بقاء شيء في كل، وتكمن دور استعمال الحركة في ثوب الصورة البيانية في أنها نقلت المعنى من المعقول إلى المحسوس، وحولته من شكل صامت إلى صورت متحركة مرئية، لتكون لها الأثر البليغ والواقع اللطيف، ولو قلنا: ولا تمسك يدك في النفقة ولا تسرف فيها لم تكن قد أصبت المعنى المراد، لأن حالة اليدين وهي مكبلة، ويراها المتلقي ويعرفها أوضعته على المراد في أنه لا يستطيع النفقة، ولا تكون منه لأن يديه مكبلتان، أما قولنا: فانه قد ينفق وقوله تعالى: (وَلاَ تَبْسُطْهَا) فإنها في حالة البسط لم يكن فيها شيء، ولا يدخر

١ – التفسير الوسيط: ٤/٢٠١٥.

٢ – ينظر تفسير الزمخشري: ١٦/ ١٠١.

حاجة تنفعه، وأما قولنا: فلا تسرف فإن الإسراف قد يكون معه ادخار، كما أن النهي الحاصل في الآية أفاد معنى ثالثا: هو التوسط بين الأمرين، الاقتصاد بين الإسراف والإمساك، ولابد للنهي من علة تسانده، فجاء النظم القرآني بقوله: (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) كناية عن الحسرة والتي لحقت به جراء بخله وضياع ماله، وقوله: (مَلُومًا مَّحْسُورًا) من قبيل اللف والنشر[1]، لأن لفظ ملوما يرجع إلى حالة اليد في كونها مغلولة، ولفظ محسورا يرجع إلى كونها مبسوطة، وفي التعبير بحركة اليد بهذه الخلة المذمومة المغلولة، وتقييدها في صورة قوية بغيضة منفرة إلى العنق، ومن ثم لا تستطيع أن تمد يد العون إلى غير بنفقه أو شيء آخر وهذه صورة البخيل، وفي التعبير بحركة اليد ببسطها كل البسط يصور لك صورة الذي لا يبقى من ماله شيء فيصبح محسورا، وهذه صورة المسرف المبذر[2]، وهكذا استطاعت الحركة أن تصور المعنى في صور قوية مؤثرة لا تصل إليها إلا من خلال هذا النظم، وروعي الوصل بين حركة اليد، ولا تجعل يدك مغلولة ولا تبسطها، للتوسط بين الكمالين في فقد اتفقت الجملتان في الإنشائية لفظا ومعنى، وهذا له أثر في النظم، ودور واضح في بناء الكلام، وتلائم لا يمكن تأديته إلا من خلال هذا التعبير الذي لا يصلح إلا به.

وجاءت حركة تبين عاقبة الذين لا يؤمنون بالله وما أنزل من الآيات والدار الآخرة حيث (لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ. **النحل: ٢٥)**

فالحركة ليحملوا تصور المشركين وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم كاملة غير منقوصة، وعليها أوزار من يضلونهم بغير علم، في صورة استقرت

١ – ينظر من بلاغة القرآن أحمد بدوي: ص ١٤٣.

٢ – ينظر المرجع السابق نفسه: ص ١٤٣.

في ذهن السامع، بتصوير المعقول بالمحسوس عن طريق الاستعارة، حيث شبه حمل الذنوب بحمل الأثقال، فالحركة في (يحمل) تصور هذه الذنوب والأوزار بالأثقال، "وهي تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حملها بل هي أدهى وأنكى"[١]، والأوزار حقيقتها الأثقال، واستعمل في الجرم والذنب لأنه يثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذنب بالوزر، وحملها يوم القيامة تمثيل لحالة وقوعهم في تبعات جرائمهم، بحمل الثقل لا يستطيع تفصيا منه، فلما شبه الاسم بالثقل فأطلق عليه الوزر، شبه التورط في تبعاته بحمل الثقل على طريق التخيلية، وحاصل من الاستعارتين[٢] كسب الإثم نفسه، والتورط في تبعاته استعارة تمثيلية، حيث شبه هيئة من يقترف الإثم والوزر ويتورط في تبعاته، بهيئة من يحمل حملا على ظهره بجامع الحمل وشدة الثقل في كل، ومجيء الاستعارة في ثوب حركة تصور عدم فراغ هؤلاء القوم من أوزارهم، فهي تلاحقهم وتتعالى على ظهورهم، ولا أدل على ذلك من مجيء الحال في قوله: (كَامِلَةً) أي: حال كونها كاملة غير منقوصة، فالحال جاء تأكيدا وتحقيقا لبيان هيئتها يوم القيامة، وهذا له أثره في الأثقال والحمل، وفي إسناد الحمل إليهم عن طريق الفاعل مذلة ومهانة، يصور المضارع هذا المشهد في صورة متجددة، وكأن السامع يراها ويشاهدها، فأتى بها من زمن بعيد حاضرة أمامه، وهذا له أثره في النفس، واللام في قوله: (لِيَحْمِلُواْ) تعليل[٣]، وإن شئت جعلتها لام العاقبة أي: أنهم جَنوا على أنفسهم بارتكاب الذنوب والمعاصي، وقولهم الأباطيل بوصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين، فكانت عاقبتهم بذلك أن

١ – في ظلال القرآن: ج ١٤/ ٢١٦٧.

٢ – ينظر التحرير والتنوير: ١٣٢/١٤.

٣ – ينظر الصدر السابق نفسه: ١٣٢/١٤.

حملوا أوزارهم على ظهورهم، وأما قوله: (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) فهو من باب من يتحمل جهتين جهة فاعله، وجهة من تسبب في وجوده، واختلف في (مِنْ) فقيل: هي للتبعيض أي: بعض أوزار من يضل بضلالهم، وهو ما ذهب إليه طائفة من المفسرين[1]، وقال الواحدي" ولفظ من في قوله: (وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) ليست للتبعيض، لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الأوزار، وذلك غير جائز لقوله(ﷺ): لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"[2]، وعليه فإن (مِنْ) هنا للجنس أي: ومن جنس أوزار الذين يضلونهم بغير علم، وإسناد الضمير في قولهم: يُضِلُّونَهُم إلى الذين يحملون الأوزار لتسجيل هذا الحكم عليهم، وأنهم كانوا سببا في ضلال هؤلاء، وأرى أن (مِنْ) هنا يمكن حملها على التبعيض أي: بعض أوزار الذين يضلونهم، وليس كل الأوزار أي: الأوزار التي كانوا سببا فيها، لأن لهم أوزارا ليسوا سببا فيها، والحمل على السببية أولى.

وأما قوله: (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ. **الأنعام: ٣١**) فشبيه بما مضى من معنى إلا أن الحمل هنا خاص بذنوبهم، لأن الحديث كان عن تكذيبهم بلقاء الله(ﷻ)، فإذا جاء أمر الله حملوا أوزارهم على ظهورهم عن طريق الاستعارة التمثيلية، حيث شبها هيئة حملهم للأوزار والذنوب يوم القيامة، بهيئة من يحمل شيئا ثقيلا على ظهره، ثم حذفت هيئة المشبه به ورمز إليها بشيء من لوازمها، وبلاغة الاستعارة تكمن في جرم هؤلاء القوم، وسوء عاقبتهم حتى إنهم لم يتخلصوا من أوزارهم، فضلا عن تصوير المعنى ونقله من المعقول إلى

---

١ – ينظر تفسير الجلالين للسيوطي: ٤/ ٤٣٣، ينظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ٣/ ٢٤، ينظر إعراب القرآن الكريم: ٥/ ٢٨٨، ينظر تفسير حدائق الروح والريحان: ١٥/ ٢١٨.

٢ – صحيح مسلم: ك/ الْعِلْمِ، ب/ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلَالَةٍ، حديث رقم : ١٦ – (٢٦٧٤). والتفسير الوسيط للواحدي: ١٣/ ٤٤.

المحسوس، وقد يحمل لفظ الحمل في الآيتين على الحقيقة، لأن الحديث عن يوم القيامة وما فيه من أهوال لا يعلمها إلا الله(ﷻ)، فقد تتجسم هذه الآثام والذنوب والأوزار يوم القيامة، حتى إنهم من شدة ارتباطهم بها عرفوها فحملوها على ظهورهم لبيان ملكيتهم، ولا أدل على ذلك من تقديم المسند إليه على خبره الفعلي (وَهُمْ يَحْمِلُونَ) لتأكيد الحكم وتقريره لهم، وتسرية لرسول الله(ﷺ) بما قالوا عن القرآن، وللتأكيد بأنهم استحقوا هذا العذاب، وجاءت (على) لبيان كيف اعتلت هذه الأوزار عليهم، وأنها كانت سببا في سوء عقبتهم ومصيرهم.

ومن وصايا لقمان(عليه السلام) لابنه التي تحسن الائتلاف، وتقوم بالربط بين أفراد المجتمع الواحد لتجعل منه مجتمعا متماسكا بين أفراده قوله: تعالى: (وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَّ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. **لقمان: ١٨**) حيث نهاه(عليه السلام) عن حركة تصغير الخد للناس، والمشي مرحا في الأرض، لأن هذا يورث الكبر والتعالي على الناس، وأول ما نلاحظه الإتيان بهذه الحركة المفردة (تُصَعِّرْ) والتي لها دلالات لا تصل إليها إلا من خلال هذه الحركة، والتي جاءت في ثوب الكناية عن التكبر والتعالي والإعراض عن الآخر، وإيثار الحركة نفسها (تُصَعِّرْ) دون التعبير بمعناها الكبر فيه بلاغة عليا، لأن تصعير الخد معناه هو إمالة الوجه عن الناس للإعراض عنهم تكبرا[١]، وأصله داء يصيب الإبل، فتميل أعناقها رغم عنها[٢]، ثم إنه استعمل هنا عن طريق التشبيه الضمني، وكأن القرآن يشبه المتكبر والمعرض عن الناس بالناقة المنوفة بالصعر[٣]، وهي حركة قبيحة ينهى عنها، لينبه أن ما يفعله المتكبر من إعراض

١ – ينظر لسان العرب: صعر.

٢ – ينظر التحرير والتنوير: ١٦٦/٢١.

٣ – ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: ٢/ ٢٧٠.

عن الناس، هو داء اقترفته نفسه، ومن ثم آثر القرآن التعبير بالحركة (تُصَعِّرْ)، فضلا عن أن هذه الحركة تستوعب الكثير من الدلالات التي تؤدي إلى الكبر والتعالي كإمالة الرأس ودوار الوجه والاستعلاء والتكبر، أو ما يطرأ على الوجه من تغييرات تفضي إليه، ومن ثم جاءت الحركة في ثوب أسلوب النهي، لإفادة النصح والإرشاد عن الابتعاد عن هذه الصفة، وقد عبر بصيغة النهي لبيان رغبته وحرصه على أن يمتثل ابنه ويستجيب لنصحه وإرشاده، والتعبير بالخد مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث أطلق الجزء وهو الخد وأراد جميع الوجه، وعبر بالخد لأن له مزيد اختصاص بالإعراض، وصلة وثيقة بمعنى التكبر، فتراه يشمل الإمالة والدوران والاستعلاء والتكبر وغيرها من صفات الإعراض، كما أن العدول عن الكل وهو الوجه فيه معنى لطيف هو أن الوجه له سيادته وشرفه ومكانته، فالأولى ألا يكون هذا مقامه من الإعراض والتكبر، ومن ثم صانه عنه، كما أن التعبير بالخد فيه المبالغة في الإعراض عن الناس، وهذا ليس من أدب الناس، وحسن معاملتهم، ثم نهى لقمان(عليه السلام) ابنه أن يمشي مشية المختال المتعجب بنفسه قال (ﷻ): (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا) حيث جاءت على حزو البيان السابق من حيث إنها سلكت طريق العطف بالواو، للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الإنشائية لفظا ومعنى مع وجود المناسبة المصوغة للعطف، كما أنه سلك طريق أسلوب النهي للنصح والإرشاد، والجملة كناية عن الكبر والتعالي والزهو والاختيال والإعجاب بالنفس، فتأمل دقة القرآن في إيثاره لحركة المشي وجعلها في الأرض، وهذا له أثر بلاغي مما لو قيل: ولا تمشي مرحا لأن المشي لا يكون إلا على الأرض، ولكن القرآن معنيٌ بكل لفظ، فإثبات الأرض فيه بلاغة عليا تشير إلى أن المتكبر المتعالي المعجب بنفسه يمشي مع الذين

يتكبروا عليهم في مكان واحد، فقويهم وضعيفهم وغنيهم وفقيرهم يمشون في الأرض فمنها خلقوا وإليها يعيدون ومنها يخرجون، فعلى أي وجه يكون التكبر والاحتيال إذا كان المشي مرحا مساويا لسائر الناس؟[١]، وفرق بين المشي على الأرض والماشي في الأرض، فالظرفية في جانب المرح تتناسب مع حالة الإعجاب بالنفس والتبختر فيها، فكأنه تلبس فيها واستحوذ عليها، وفي جانب عباد الرحمن جاءت على التي تفيد الاستعلاء، لتتناسب مع حالتهم من التواضع والهون والرحمة، فاستعلوا عليها برحمتهم ولينهم وحسن معاملتهم قال(ﷻ): (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا. الفرقان: ٦٣) وجاء قوله(ﷻ): (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) تعليلا لهذا النهي، وجاء معتمدا على التوكيد بإن واسمية الجملة، وتقديم المسند على خبره الفعلي ليكون أكثر استجابة للمراد، ثم أمره بمنقبة قال(ﷻ): (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) والقصد في المشي هو الاعتدال فيه حتى يكون مشيا بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثيب الشطار[٢]، والقصد هو العدل بين الطرفين، واستعمل في حركة المشي عن طريق الكناية عن صفة السكينة والوقار والاعتدال في المشي بين البطء والإسراع، ثم أمره بمنقبة غض الصوت، والغض هنا كناية عن خفض الصوت بالحديث، لأن ذلك من أدب الناس، وسمة من سمات المؤمن المتزن، وثمة معنى بديعي في استعمال القرآن لغض الصوت دون دلالة الخفض، وذلك لأن الغض يتناسب مع الصوت، فالمراد منه هو إيصال الكلام بأدب ووقار وسكينة، والأصل الاستدامة على هذا دون تغير أو تبدل لحال آخر، ومن ثم استعمل القرآن الغض مع البصر، قال(ﷻ): (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ. النور: ٣٠) أي: لا يرى

١ – ينظر التحرير والتنوير: ٢١/ ١٦٧.

٢ – ينظر الكشاف: ٣/ ٤٩٧.

منه شيئا تماما، أما خفض الصوت فإنه ضد الجهر، والخفض هو الشيء إذا حط بعد علو[1]، ولا يجوز هنا في هذا المقام لأن الأمر على الدوام وإنما جاء في خفض الجناح (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. الحجر: ٨٨)، لأن فيه عزة وعلوا وتفاخرا مع غير المؤمنين، ورحمة وخفضا مع المؤمنين فهي رحمة بعد رحمة، وثمة فرق بين حركة الغض نفسها في استعمالها، ففي وصية لقمان جاءت بالأمر، وأرى أن الأمر هنا ليس على الوجوب، وإنما هو أمر بشيء حاصل عند ابنه وجاء به للثبات والدوام عليه والإلهاب والتهييج، والمعنى ليكن أمرك بين الواسطة في الجهر والهمس، وعليه فإن (مِن) في قوله (مِن صَوْتِكَ) للتبعيض أي: لا يبلغ بصوته درجة الإسرار والازعاج أي: اخفضه بعض الشيء، أما في حركة يغضون فإنها تدل على الخفض على الدوام دون الجهر فقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ. الحجرات: ٣) وقوله: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ. النور: ٣٠) أي: يخفضونها تماما دون واسطة بين الأمرين، ومن ثم استعمل القرآن مع حركة يغضون المضارع للتجدد واستمرار حركة غض عند كل حديث دون الإخراج عنه، وإلا وقع في المحظور وحبط عمله، وأما قوله تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ. الإسراء: ٢٤) فعبر بحركة خفض الجناح، لأن خفض الجناح يكون بعد علو فناسبه الخفض أي: لا يكن منك علو على الأبوين إنما الأولى التذلل والرحمة والشفقة والرأفة لهما، كما أن الخفض يتناسب مع الجناح دون الغض، لأن الجناح يكون في حالة الرفعة والعلو فإذا كان مع الوالدين لزم الخفض، وفي حركة خفض الجناح استعارة حيث شبه الذل بالطائر بجامع الخضوع في كل، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الجناح عن طريق الاستعارة المكنية، وقد تحمل الحركة على التصريحية

١ – ينظر لسان العرب خفض.

حيث شبه الجانب بالجناح ثم حذف المشبه، ودور الاستعارة تكمن في أنها منحت البيان التجسيم والتشخيص، ونقلته من معقول إلى محسوس لتوضيح المعاني في صورة بينة تجذب المشاعر، وتنبه العقول إلى الحث على حسن المعاملة مع الوالدين، وأن يكون في خضوعه وبره لهما كحال الطائر الذي يرفرف بجناحه تذللا وحنانا.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد

فقد خلص البحث المتواضع إلى نتائج على النحو التالي:

١- تنوع الحركة في القرآن بين مشهد وآخر، لتضع المتلقي أمام مشهد يبرز رغبته في معرفة حقيقة الأشياء والبحث عنها.

٢- للتصوير الحركي دوره في إدراك المعنى من النظم، فلا تصل إلى المعنى المراد من البيان إلا به، فلا تجد المعنى الذي تجده به إذ لم يوجد، فإنك لا تجد به بدلا، ولا تبتغي عنه حولا.

٣- ارتبطت الحركة ارتباطا وثيقا بالصورة، لتبرز المعنى مشاهدا جزئيا يتناسب مع الموقف عند تلقي هذه المعاني من النظم القرآني، لأن الصورة البيانية ترمز الى الحركة، والحركة ترمز إلى الشيء أكثر من غيرها.

٤- التصوير الحركي في القرآن الكريم أداة تصوير رائعة، حيث أدى دوره الإعجازي بإيجاز بليغ، تتحرك الصورة في نظم واضح كاشف للمعنى، زاخر بالأساليب البلاغية.

٥- جاء التصوير الحركي كاشفا لمعنى غيبي، فيصفه بالحاضر المعاين، حيث ينتزع القرآن الحركة من البيئة المعروفة للمتلقي، ويدرجها في نظم متكامل معها، ويألفها ويتفاعل معها في الفكرة، ليكون التصوير الحركي نابضا لهذا المعنى، ثم يعبر عنه بأسلوب يصل إلى الدلالة من أقرب طريق، لتكون الفكرة قريبة المأخذ عامة للناس.

٦- يأتي التصوير الحركي على اختلاف نوعه بالعديد من الدلالات الفنية، والقيم البلاغية، فلم تقف الحركة على معناها فقط في الألفاظ والتراكيب بل فاقت لتصور الأشياء بصورة تتناسب مع دلالتها في الحياة والحركة.

٧- جاءت الحركة مناسبة لمعناها في النظم موضحة له، حيث أتى القرآن بالحركة التي تصف المعنى، لتخرجه من المعقول الخفي إلى صورة محسوسة جلية للسامعين.

٨- أحيانا تشترك الحركة الواضحة في أكثر من نظم، لتدلي بدلوها في بوتقة من الألفاظ والتراكيب حتى تصل المعنى بصورته الكلية إلى الذهن.

٩- تأتي الحركة كاشفة لجزاء المؤمنين في الدنيا والآخرة والنعيم الحاصل لهم، وتأتي في بيان آخر كاشفة لوعيد الله لأهل النار وأحوالهم فيها، لتضع السامع بين جزاء كل فريق.

١٠- كان للمقام دور في مجيء الحركة على أشكالها وأبعادها، ومراعاة مقتضى الأحوال المختلفة هي التي تستدعي التراكيب، فراينا الانسجام ماثلا بين تلك التراكيب والحركة، وهذا له دور في النظم، وتجلية المراد للسامع.

١١- كان تكرار الحركة بلفظها في نظم واحد يصف الفعل كأنه مشاهد ومعاين لتجنب الوقوع في الشيء الذي تصير به الحركة مثل (إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا. الواقعة: ٤) وغيرها من الحركات، وهذا تأثير في النفس يحمل على الاستيعاب، وإدراك المطلوب من النظم، ورأينا الانسجام ماثلا من خلال السجع، والذي يحدث تناسقا بالجمع والتوازن بين كل جملة والتي تليها.

١٢-أحيانا تأتي الحركة كاشفة موضحة لصورة لم يسمع عنها المتلقي ولم يشاهدها، وهذا من أبلغ وألطف التصوير الحركي، لأنه يحتاج إلى إعمال فكر وعقل، لأن الشيء إذا نيل بعد فكر طويل كان نيله أوقع في النفس وأشد تأثيرا، فكان وقعه في النفس أرسخ.

١٣- وأحيانا أخرى يأتي التصوير الحركي بصورة لا وجود لها في الخارج، ولا لبعض من أجزائها، لتنفر قلوب الناس لمن وقع في الفعل، وإنما صور هذه الأشياء التي لا وجود لها، لما عاهدته الناس في كلامهم من أمور غير موجودة تثير الرعب في نفوس العباد، ليتخيل السامع من وقع في الفعل، وقد تأتي الحركة كاشفة لصورة توجد بعض أجزائها في الواقع، فتصف الحركة الفعل كأنه مشاهد ومعاين، لتجنب الوقوع في الشيء الذي تصير به الحركة.

فهرس: المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ت/محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

أساس البلاغة للزمخشري: ت/محمد باسل عيون السود: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.

أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني ت/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة.

إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص- سورية، الطبعة : الرابعة، ١٤١٥هـ.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ت/محمد عبد الرحمن المرعشلي: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ..

الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، ت/ محمد عبد المنعم خفاجي: دار الجيل- بيروت. الطبعة: الثالثة.

البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

بلاغة القرآن الكريم في آثار القاضي عبد الجبار، أ.د/ عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي.

البيان في ضوء أساليب القرآن الأستاذ الدكتور عبد الفتاح لاشين، دار الفكر، القاهرة، ١٤٢٢هـ ٢٠٢٢ م.

تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: لأبي الإصبع، ت/د. حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

التصوير البياني: أ.د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط/ السابعة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: أ.د/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط الثالثة ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

تفسير الجلالين، للسيوطي : دار الحديث – القاهرة، الطبعة: الأولى.

التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر- القاهرة، ط: الأولى.

تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: محمد الأمين الهرري ت/د. هاشم محمد علي مهدي، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

خصائص التراكيب: أ.د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: أ.د/عبد العظيم المطعني، رسالة دكتوراه: مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

الخصائص لابن جني: تحقيق/ محمد النجار، عالم الكتب بيروت.

دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ت/ محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان، ت/ خليل مأمون شيحا: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي، ت/ علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربي– بيروت.

الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلويّ، مكتبة العنصرية– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ت/د.عبد الحميد هنداوي: المكتبة العصرية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م.

علم المعاني: عبد العزيز عتيق: دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م.

عيار الشعر: لابن طباطبا، عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي – القاهرة.

الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري ت/ محمد إبراهيم سليم، دار العلم، القاهرة – مصر.

الفصل والوصل في القرآن الكريم: منير سلطان: منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة: الثانية.

كتاب الأفعال: لابن الحداد، ت/ حسين محمد شرف، مؤسسة دار الشعب القاهرة. ط/ بدون١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

الكتاب لسيبويه، ت/ عبد السلام محمد هارون: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: للزمخشري: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ..

لسان العرب: لابن منظور: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، بدوي طبانة: دار نهضة مصر. القاهرة.
مجاز القرآن: أبو عبيدة، ت: محمد فواد سزگين: مكتبة الخانجى– القاهرة، الطبعة: ١٣٨١هـ.
المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للتفتازاني، ت/ د عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط/ الثانية ٢٠٠٧م.
معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: لأبي الفتح العباسي المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت.
معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، ت/ عبد السلام هارون: دار الفكر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، للرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.
مفتاح العلوم للسكاكي: ت/: نعيم زرزور: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
من بلاغة القرآن: أحمد البدوي: نهضة مصر – القاهرة: ٢٠٠٥م.
النكت في إعجاز القرآن: للرماني، ت/: محمد خلف الله: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.
الوسيط في تفسير القرآن المجيد: محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، ت/ الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث باللغة العربية	٢١٢٧
ملخص البحث باللغة الإنجليزية	٢١٢٨
المقدمة	٢١٢٩
التمهيد	٢١٣٢
المبحث الأول: ترادف الحركة الواحدة في أكثر من مشهد	٢١٣٦
المبحث الثاني: أثر المجاز في الحركة –مجيء المجاز مبينا للحركة–.	٢١٨٣
المبحث الثالث: الحركة التي تبرز المشاهد وتجعلها ماثلة أمام الأعين	٢٢٠٧
المبحث الرابع: الحركة ذات الدلالات الفنية الكاشفة عن المعنى	٢٢٣٠
الخاتمة	٢٢٥٣
فهرس المصادر والمراجع	٢٢٥٥
فهرس الموضوعات	٢٢٥٩